لقاءات رمضان 1434هـ

الجزء الثاني

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

-منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

-هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

-الكمال لله-عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثامن

تفسير الآيات 85 – 93 من سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نبدأ هذا اللقاء المبارك الذي سورتنا فيه هي سورة الأعراف، هذه السورة العظيمة التي كان مطلعها أمر عظيم دارت عليه السورة كلها، فلما نقرأ في مطلع السورة بعض الحروف المقطعة في الآية الأولى نسمع قوله تعالى: {كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ} خطاب للنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-{فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ}[1].

هذا الكتاب الذي أنزل على النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-يدور حول هذا الأمر، الذي سيأتينا في الآية التي بعدها {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (3)} ما هو المطلوب؟

كل المطلوب منك أن تتبع ما أنزل إليك من ربك، كل واحد فينا ينظر ماذا أنزل إلينا من ربنا ثم يتبعه، ويمنع عليك وعلى كل من اتبع ما أنزل إليه من ربه يمنع عليه أن يتبع غيره {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (3)} على هذا الأمر ستدور السورة كلها، ثم تأتي الأخبار عن الأقوام كيف كان تصرفهم هل اتبعوا ما أنزل من ربهم أم لا؟

يقول الله-عزَّ وجلَّ-: {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} بسبب أي شيء أهلكها الله؟ بسبب كونها ما تبعت ما أنزل إليها من ربها واتخذت من دونه أولياء، إذًا لا ائتمرت بالأمر ولا انتهت عن النهي.

{وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5)} هذا حالهم بعدما وقع عليهم البأس فالله يقول: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6)} إذًا سيُسأل الأقوام وسيُسأل الرسل.

ماذا سيكون موقفنا من السؤال؟! يعني الأقوام التي أتت قبلنا ماذا سيحصل معها؟ ستُسأل، يُسأل القوم ويُسأل المرسلين {الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ} يعني القوم، وسيسأل الله أيضًا المرسلين، نحن أمة النبي ماذا

(1) [سورة الأعراف: 2]

سيكون حالنا؟ كما ورد في أحاديث النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–التي من بينها ما ورد في كتاب صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء:

"باب قول الله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا}".

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ اللهُ–عزّ وجلّ–مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ–محمد وأمته ماذا سيفعلون؟ سيشهدون–، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[1] فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا})) وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ[2].

نقرأ رواية في سنن ابن ماجه والحديث عن أبي سعيد الخدري أيضًا:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلاَثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقَلُّ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، فَيُقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ؟–يعني مَن علمكم أنه حقًا هذا النبي بلَّغ أمته؟– فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ، قَالَ: فَذَلِكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}))[3].

إذًا هذه صفة أمة محمد–صلى الله عليه وسلم–.

ففي هذا الموقف {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6)} هذا الموقف سيكون لنا فيه موقف، فسنشهد أن الرسل بلغت.

(1) [سورة البقرة: ١٤٣]
(2) رواه البخاري في صحيحه (4487).
(3) رواه ابن ماجه في سننه (3476).

وممن سنشهد عليهم شعيب–عليه السلام–الذي سيكون اليوم نقاشنا حول قصتهِ مع قومه، ونبقى ذاكرين لأول السورة.

الله–عزَّ وجلَّ–في أول سورة الاعراف قال لنا: {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (3)} هذه هي الرسالة التي أتى بها النبي وأتى قبله الأنبياء بها، {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} لأنها لم تستجب، وسيتبيّن لنا هذا في القصص التي سنسمعها في السورة {فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4)} فما كان موقفهم؟

{فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5)} ماذا حصل؟

{فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6)} ونحن في هذا السؤال لنا موقف {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7)} والآن أنت تسمع عن قصصهم. ثم ماذا سيكون؟ {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8)} إذًا هذا الفلاح، {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9)}.

إذًا مطلع السورة يبيّن لنا ما هو المطلوب منا؟ وماذا حصل لمن قبلنا؟ فأنت اتبع ما أنزل إليك ولا تتبع من دونه أولياء من أجل ألّا يكون حالك مثل هؤلاء، وخذ لك نموذجًا ما ذُكر لك في سورة الأعراف من قصص الأنبياء وأخبارهم ما فيه كفاية، فقد ورد ذكر نوح، وذكر هود، وذكر صالح، وذكر شعيب، وذكر لوط–عليهم جميعًا السلام–.

وسيكون لقاؤنا في الكلام عن شعيب–عليه السلام–، ونحن جامعون قلوبنا على أننا سنُسأل يوم الدِّين عن تبليغ شعيب–عليه السلام–لقومه، وأننا سنشهد بعلم، مصدِّقين ما أتى في القرآن، مصدِّقين ما أتى به النبي–صلى الله عليه وسلم–.

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (93)}[1]

فأول القصّة يقول الله–عزَّ وجلَّ–: {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} وسيتبيّن لنا ما المقصود بالأخوة؟

{قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} إذًا هذا الذي طلبه منهم، {قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} ما هي البينة؟

{فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ} هذا الأمر بعد الأمر الرئيس وهو: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} الأمر الرئيس وهو التوحيد، ثم أتى بعده أهم سلوك يدلّ على أنهم موحّدين بالنسبة لحالهم:

{فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} أصلحها الله فلا تفسدوها، ما معنى إفسادها بعد إصلاحها؟

(1) [سورة الأعراف: ٨٥ – ٩٣]

{ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (85)} هذه أوامر ونواهي، اعبدوا الله، أوفوا الكيل، ولا تفسدوا في الأرض، وهذا كله سيكون في مصلحتكم أنتم المنتفعين به أولًا.

{وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ} ماذا تفعلون؟ {تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ} لا تفعلوا هذا الفعل، نهاهم عن الإفساد في الأرض وأن يقعدوا بكل صراط.

{وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا} أن يكون مقصدكم وبغيتكم أن تكون عوجًا، ما هو الذي يكون عوجًا؟

مما يعينكم على هذا الفعل: {وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا} ماذا فعل الله بكم؟ {فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} فمما يعينكم على الأوامر والنواهي، مما يعينكم على أن تعبدوا الله، وتوفوا الكيل، ولا تفسدوا في الأرض، ولا تقعدوا بكل صراط، أن تذكروا إن كنتم قليلًا فكثركم، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين.

{وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} اصبروا لا تعتدوا علينا ولا نعتدي عليكم، اصبروا حتى يحكم الله بيننا، ماذا كان ردّهم؟

{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ} أتى التعدّي منهم الآن {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا} هذا اختيار، والاختيار الثاني: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} إما نخرجك أو تعود في ملتنا {قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} كارهين الملة التي أنتم عليها.

{قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم} نكذب ونقول إن ملتكم هي الحق ونحن نعرف أن ملّتكم هي الباطل.

{قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89)}

إذًا هو انتظر أن يحكم الله بينهم، هم لم ينتظروا قالوا: إما نخرجك أو تعود، قال لهم: {أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا}.

هم باختيارهم.

{إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا} وسنفهم ما معنى هذا.

{وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} كان هذا ردّهم على الاختيارين إما نخرجكم أو تعودون.

{وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ} إذًا يُزهدونهم في شعيب ويجعلون الخسارة في اتباعه، كيف عاملهم الله بعد أن لم يمتثلوا ما أُنزل من ربهم واتبعوا من دونه أولياء؟ {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}.

الحكم عليهم: {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا} هذه الأرض التي كانوا فيها {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ}.

{فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ} شعيب {وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ} إذًا الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين كما قرأنا في مطلع السورة.

{فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5)} فلما أخبر الله–عزَّ وجلَّ–عن حالهم يوم القيامة {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9)} الخسار على هؤلاء القوم الذين كذبوا شعيبًا. {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ}.

إذًا معنى هذا ما تقرأه في مطلع السورة ستجده متحققًا في الأقوام الذين ذكروا في السورة، وهكذا تقرأ الأعراف، بهذه الصورة تقرأ سورة الأعراف، ماذا نفعل في سورة الأعراف خاصة؟ نرى مطلعها وننظر إلى القصص التي وردت فيها، ونرى كيف أن الله–عزَّ وجلَّ–قصّ علينا حالهم وقصصهم، الآن قرأنا الآيات ووضعنا الأسئلة التي نريد الإجابة عليه، نأتي إلى الخطوة الثانية:

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

"{وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} إلى آخر القصة: أي: {و} أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدين {أَخَاهُمْ} في النسب {شُعَيْبًا} يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان".

إذًا عرفنا إلى أي شيء يدعوهم وبأي شيء يأمرهم وكان المفترض أن يتبعوا ما أنزل إليهم.

"وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين، بالإكثار من عمل المعاصي" إذًا الإفساد في الأرض سيكون بماذا؟ بعمل المعاصي، يعني الإنسان الذي يعمل المعاصي الخاصة به يكون ممن شارك في الإفساد في الأرض.

"ولهذا قال: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} فإن ترك المعاصي امتثالًا لأمر الله وتقربًا إليه خير" إذًا لاحظ {إن كنتم مؤمنين}، فترك المعاصي امتثالًا لأمر الله وتقربًا إليه هذا هو الخير، وليس ترك المعاصي لمجرد تركها لأن لا قدرة لك عليها أو لأنك مللتها، إنما اترك المعاصي متقربًا إلى الله بتركها.

"وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار". إذًا سيعود الخير عليك لو امتثلت أمر الله وتركت المعاصي.

"{وَلَا تَقْعُدُوا} للناس {بِكُلِّ صِرَاطٍ} أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها، تحذرون الناس منها {و} {تُوعَدُون} من سلكها {وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} من أراد الاهتداء به–يعني بشعيب– **{وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا} أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعا لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة"**–إذًا كان الواجب الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده يسلكون في هذا السبيل إلى مرضاته ودار كرامته، والله–عزَّ وجلَّ–من أعظم رحمته أن دلّ الناس على السبيل.

"وتصدون لنصرتها والدعوة إليها والذب عنها"، يعني كان الواجب عليكم أن تصدّوا من يمنع عن هذا الطريق وليس أن تكونوا أنتم قطاع طريق عليها!.

"لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها".

واليوم ما أكثر هؤلاء الذين بلغ بهم قلة الاحترام للدين باسم الدعوة للحرية أن يجعلوا أهل الدعوة إلى الله والمرشدين الناس إلى طريق الله يجعلونهم–كما يعبرون–(فاشية)، يقصدون بكلمة (فاشية): أنه النظام

الذي يرغم الناس قهرًا لسلوك الصراط المستقيم، وهذا والله منهم افتراء! فإن الفطر السليمة لابد أن تميل إلى الدين وترتاح إليه، لكن قوم طمس على قلوبهم واستخدمهم الشرق والغرب لتنفيذ مخططاتهم فاجتمع عليهم شأنان: قلوب ميتة، وإغراءات، فما كان منهم إلا أن يتعدّوا على دين الله هذا التعدي ويصدون عن سبيل الله.

على كل حال هذه الحال التي كان عليها قوم شعيب نموذج عليك أن تلاحظه في الواقع، ولم تُحكَ لك قصص الأنبياء إلا لتعايشها معايشة تامة وترى نماذجها في الحياة.

يقول شعيب لقومه: " **{وَاذْكُرُوا} نعمة الله عليكم {إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ} أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل، والصحة**". {إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا} سيتخطفكم الناس وعندما تكثرون ستصبحون عددًا ويكون لكم هيبة.

"**وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم**" وأنتم تعرفون أن الأوبئة عندما تأتي على الأقوام تذهب بهم! وهذا ابتلاء من الله لبعض الأقوام، فحينما يأتي الوباء يموت في البيت الواحد الأربعة والخمسة نسأل الله أن يحفظ المسلمين في كل مكان.

"**ولا سلط عليكم عدوا يجتاحكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدرار الأرزاق وكثرة النسل**" وهذا من عظيم عطاياه، إدرار الأرزاق وكثرة النسل، في مقابل هذا يقول لهم:

{وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبتات ولم يورثوا ذكرا حسنا، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وفضيحة". يحذر شعيب قومه من أحوال من مضوا، وهذه الأحوال تاريخها معروف يتداوله الناس، وهؤلاء يعرفون أقوام جاءهم البأس بياتا أو هم قائلون، لكن عجيب من لا يتعظ بغيره، عجيب أن ترى الناس كلهم يريدون أن يعيدوا نفس المخالفة، يخالفون نفس الطريقة ويصلون إلى نفس النتيجة، وهذا من أعجب أحوال الخلق! واللبيب من وُعظ بغيره، فنحن في حالنا اليوم نرى حولنا من خالف السنَّة في كل مكان وماذا حدث بهم وكيف لم يأتوا بخير قط، ومع ذلك الناس يسيرون في نفس الطريق ويطلبون بنفس المطالبات كأنهم لا يشفقون على أنفسهم من مخالفة سنَّة النبي–صلى الله عليه وسلم–.

لا يشفقون على أنفسهم، لا يشفقون على أهليهم من مخالفة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، بعدما وعظهم كلمهم عن من استجاب وعن من لم يستجب وكيف عليهم أن يعاملوه.

قال الشيخ:

"{وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا} وهم الجمهور منهم. {فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل".

{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ} وهم الأشراف والكبراء منهم الذين اتبعوا أهواءهم ولهوا بلذاتهم" وهؤلاء ما يكون عندهم استعداد لتغيير أحوالهم، رؤساء كبراء في فكرهم، في توجيهاتهم في تصريفهم للشؤون، لا يريدون أن يغيروا، ولهوا بلذاتهم أيضًا.

فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه واستكبروا عنه، فقالوا لنبيهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين وهذا بسبب ما معهم من القوة.

{لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} استعملوا قوتهم السبعية يعني من السبع، قدرتهم على التصرف.

في مقابلة الحق، يعني عنده سلطه فلا يكلمك عن الحق ولا يناقشك فيه بل يستعمل سلطته.

ولم يراعوا دينا ولا ذمة ولا حقا، وإنما راعوا واتبعوا أهواءهم وعقولهم السفيهة التي دلتهم على هذا القول الفاسد، إذًا عقولهم هي التي أوصلتهم إلى هذا القول الفاسد.

فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا. ف {شعيب} عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعا في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى توعدوه إن لم يتابعهم بالجلاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم".

لماذا أحق بهم؟ لأن هذه الأرض يورثها الله الذين آمنوا، ويعامل الكافرين بحلمه، لكن الاستحقاق للذين آمنوا.

قال:

"**ف {قَالَ} لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجبا من قولهم:** هذا القول الذي فيه أن يخرجوا أو يعودوا في ملتهم **{أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ}** كارهين أي شيء؟ **أي: أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها، فإنما يُدعى إليها** يُدعى إلى ملتكم، **من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها؟"** يعني أي عقل هذا؟ نقول لكم: هؤلاء الأصنام لا تنفع ولا تضر، هذه المعبودات من دون الله لا تملك شيئًا، هؤلاء المقبورين ليس بيدهم شيء إنما هم رفات ميتين، كيف تقولون لنا: "عودوا فالزموهم أو اطلبوهم"؟ هذا الكلام يقال لمن كان له نوع رغبة أو لا يعرف، لا من يأتي يشنع عليها!

"**{قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا} أي: اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا الله منها وأنقذنا من شرها،** إذًا أول فائدة هنا أن نعرف أن التوحيد نجاة، وأن مَن علمه الله التوحيد فقد أنجاه، من حماه من براثين الشرك، ومن براثين تعظيم غير الله فقد أنجاه، وهذه النجاة لا تكون لأي أحد، نسأل الله أن ينجينا.

فيقولون: اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا الله منها وأنقذنا من شرها، **أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل لله شريكا، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولدا ولا صاحبة، ولا شريكا في الملك."** إنه أعظم افتراء أن يكون الله هو خالقك وهو المالك وهو المدبر المصرف الرزاق المعطي الذي ينجيك ويلطف بك ويعطيك ثم تجد قلبك إلى غيره مائلًا وبغيره متعلقًا، وقت شدتك تذكر غيره، وقت سرورك تشكر غيره! فما أعظمه من افتراء، ما أعظمه من افتراء، ما أعظمه من افتراء، الله المستعان.

قال:

"**{وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا} أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال** من المحال أن نعود للشرك، **فآيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة".**

نعدّ الآن الوجوه التي آيسهم بها أن يوافقه:

الوجه الأول: **"من جهة أنهم كارهون لما هم مبغضون لما هم عليه من الشرك"**. إذًا في قوله: {أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} هذا الوجه الأول الذي آيسهم به.

الوجه الثاني: **"ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذبًا"**، يقول: {قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} يعني لو رجعنا، نكون افترينا على الله كذبًا. إذًا ما أنتم عليه كذب.

الوجه الثالث: **"وأشهدهم أنه إن اتّبعهم ومن معه فإنهم كاذبون"** {قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا}.

الوجه الرابع: **"ومنها اعترافهم بمنّة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها"**. يعني أنا أكون في منّة ينجيني الله فأعود إلى هذه الرذيلة العظيمة! لا، ايأسوا من عودي.

الوجه الخامس: **"أن عودهم فيها–بعد ما هداهم الله–من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأمحل المحال"**.

ماهية حالتهم الراهنة؟ ما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى، إذًا من المحالات أن يعودوا بالنظر إلى حالتهم الراهنة.

"وحيث إن الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال" إذًا في هذه الحالة الراهنة من جهة أن الله وضع في قلوبهم التعظيم، ومن جهة أن الله منّ عليهم بالعقول فعرفوا الحق، لا يمكن أن يعودوا، هذا من جهة حالتهم الراهنة.

قال:

"أما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه–إذًا هذا نظر آخر–**التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى"** مهما كان عندك أسباب قوية لا تظنّ أن الثبات تحت يدك.

"فإنّهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئًا أو يتركونه، ولهذا استثنى قال {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا} أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته". ونحن نعلم يقينًا أنّ الله لا يخذل المقبلين عليه، أن الله يهدي من اهتدى من طلب الهداية، لكن هذا التقرير دليل على فقر العبد التام.

ثم بيّن هذه الحقيقة في قوله: "{وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه. {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا} أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم" وليس على أنفسنا.

"وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله، كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه". فانظر إلى هذا الاعتقاد المهمّ، في نفسك الآن كراهية للشرك، في نفسك الآن بُغض لطريق الضلال والمعاصي، في نفسك الآن استنكار شديد للربا، في نفسك الآن مقت لطريق المستهزئين بسنَّة النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–الشاكين فيها، تقول ما يكون لنا أن نفعل مثل فعلهم، نقول: نعم {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} لكي نبقى على ما نحن فيه {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا} .

- يا ربنا نحن نكره طريق الشر، طريق المعاصي.
- نكره طريق الناس سلكوه استهانة بالدين وعدم التعظيم لك ولأوامرك.
- نكره ما نسمع من الاستهزاء بسنَّة نبيك.

نكره هذا كله، لكن هل نثبت؟ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا.

قال:

"{رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} أي: انصر المظلوم، وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق {وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} وهنا يشير الشيخ لمعنى طلب الفتح، قال:

وفتحه تعالى لعباده نوعان:

1) **فتح العلم، بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.** وهذا فتح عطية من الله أسأل الله أن يفتح لنا أبواب العلم ويفتح قلوبنا لها، إذً هذا فتح العلم.

2) **والنوع الثاني من الفتح: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة بالظالمين والنجاة والاكرام لصالحين، فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره ما يكون فاصل بين الفريقين".**

إذًا بعدما استيأسوا منهم وبعدما كان أولئك الاعتداء عليهم إما بالإخراج أو بالعود فما كان منهم إلا أن بيّنوا أنهم لا يعودون وأنهم على الله يتوكلون في الثبات على الطريق وطلبوا من ربنا العظيم أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق. قال: وأنت خير الفاتحين، ولو لاحظتم {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} وهنا {وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} وقد تكرر في السورة مثل هذا.

قال:

"{وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ} محذرين عن اتباع شعيب، {لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} كلام يقولونه بألسنتهم ماذا سيخسرون؟ سيخسرون الدنيا! وماذا تعني الدنيا؟

هذا ما سوّلت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى. وكم اليوم من يقول: "إن اتبعتم سنة النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–فإنكم خاسرون!" كم اليوم باللسان الصريح أو بما يتضمنه كلامهم!

ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال. لكن في وقت لا ينفع فيه الندم ولا تنفع فيه المعرفة.

{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} أي: الزلزلة الشديدة {فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} أي: صرعى ميتين هامدين.

قال تعالى ناعيًا (واصفًا) **حالهم: {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا}** كأنهم ما كانوا فيها. **أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتها، ولا تفيّئوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارح أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم العذاب {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} فنقلهم**–هذا العذاب–**من مورد اللهو واللعب واللذات، إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات، ولهذا قال: {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ}"** نعم هنا الخسارة؛ ولذلك قال تعالى: {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا

إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5)} وقال: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9)} إذًا هذا ما وقع عليهم إلا بظلمهم لأنفسهم، {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ} إنهم كانوا يقولون للقوم: {لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} والحقيقة{الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ}.

قال:

"**أي: الخسار محصور فيهم**. هم: ضمير الفصل هذا يدلّ على الاختصاص هم فقط الخاسرين.

لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، لا من قالوا لهم: {لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام {وَقَالَ} معاتبا وموبخا ومخاطبا بعد موتهم: {يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي} قمت بما يجب عليّ.

أي: أوصلتها إليكم، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه، وخالطت أفئدتكم يعني عرفتموها أحسن معرفة.

{وَنَصَحْتُ لَكُمْ} فلم تقبلوا نصحي، ولا انقدتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم.

{فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ} ولهذا في مطلع السورة {فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ} لا تأس على القوم الكافرين.

أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردّوه ولم يقبلوه ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يُحزن عليهم، بل يُفرح بإهلاكهم ومحقهم. فعياذًا بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأيّ: شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم؟"

إذًا هم في حال من الخزي والعار والعناد تجعل أنصح الخلق لهم–وهو نبيهم الذي يجتمع فيه أنه منهم، ويجتمع فيه أنه رسول من عند الله–لا يأسَ عليهم وهم يستحقّون فكيف يأسى على قوم كافرين؟!

ولهذا من أعظم القُرَب إلى الله: حب من يحب الله، وبغض من يبغض الله، حب من يحب رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–وبغض من يبغض رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–، فلا تضع مشاعرك ومحابك

في موطن لا يليق، لا تأسَ على قوم كافرين، إذا وصلتهم الرسالة وتبيّن لهم الأمر وكُرّر عليهم، ثم عاندوا، ليسوا أهلًا للشفقة، فإنك تحب الله حبًّا يجعلك تبغض كل من يعادي طريق الله.

ونعود لأول السورة فنقول: إن المطلوب منّا جميعًا أن نتّبع ما أنزل إلينا {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (3)}. إن هذا هو المطلوب منا، وكن على حذر {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4)} لما جاءهم بأس الله {فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5)} لكن في وقت لا ينفع! ماذا سيحصل؟ سيُسأل {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} ما موقفنا من هذا السؤال؟ سنكون شهودًا على كل الأنبياء الذين أدّوا الرسالة إلى أقوامهم {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7)} ثم يوم القيامة {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ}. بأي شيء؟ بأنه اتبع ما أنزل إليه.

{فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8)} إذًا هذا هو الفلاح، والمفلحون مَن اتبعوا وانتهوا عن ما أمروا أن ينتهوا عنه، والذين خسروا أنفسهم هم الذين خالفوا {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9)}.

ولا تنسوا: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (10) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (11)}.

فذكّرنا الله في مطلع سورة الأعراف بنعمه، فكيف بعد أن أنعم علينا هذه النعم كلها ينزل علينا كتاب ويأمرنا بأوامر ويقول لنا: {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} ثم نكون ممن خالف! نعوذ بالله من الخذلان، نعوذ بالله من الخذلان، نعوذ بالله من الخذلان.

نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعل شهادتنا يوم الدّين مع نبيّنا–صلّى الله عليه وسلّم–مما نفخر به، ومما يدلّ على قبول الله لنا شهودًا، اللهم آمين.

اللقاء التاسع

تفسير الآيات 20–29 من سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقاؤنا اليوم بفضل الله ومنّته هو اللقاء التاسع من ضمن لقاءات هذا الشهر المبارك.

وسيكون بإذن الله لقاؤنا حول هذه **السورة العظيمة سورة الأنفال**، التي ابتدأ فيها الخطاب للمؤمنين وللنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ} خبر عن حال المؤمنين والجواب: {قُلِ} يعني يا محمد {الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ} يا أيها المؤمنون {وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} علاقاتكم بعضكم ببعض {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} وهذا الأمر العظيم الذي ستدور السورة عليه{إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[1] أي أن الإيمان يستلزم منكم يا أيها المؤمنون أن تطيعوا الله وتطيعوا الرسول، وهذا الأمر بالطاعة مناسب جدًا هنا، فإن الأنفال هي الغنائم التي يمنّ الله بها لهذه الأمة من أموال الكفار، وهذه الآيات نزلت في قصة بدر، أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين؛ فلأن الأمر في أوله حصل بين بعض المسلمين نزاع، كيف تقسم هذه الأموال؟ سألوا النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-كانت الإجابة من الله، أن هذه الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم الله، بل الواجب أن تتقوا الله وتصلحوا ذات بينكم ولا يكون بينكم تقاطع وتدابر بل يحصل توادّ وتحابّ فبذلك تجتمع كلمتكم، والأمر الجامع لهذا كله: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} الإيمان يدعو صاحبه لطاعة الله وطاعة الرسول، من ليس بمؤمن لا يقع منه الطاعة لله ولا الطاعة للرسول.

ثم أتت صفات المؤمنين {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}[2] إلى آخر الصفات، فذكرت الصفات ثم ذكرت الغزوة وأحوال الناس في تلك الغزوة، الغزوة التي نزلت فيها الأنفال.

إلى أن نصل إلى مقصدنا من الآيات وهي الآية (20) من نفس السورة، التي لازال فيها خطاب للمؤمنين، فيقول الله-عزَّ وجلَّ-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ(20)} وهذا ذكر في بداية السورة {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} إلا أن الآية هنا فيها

(1) [سورة الأنفال: 1]
(2) [سورة الأنفال: 2]

نهي عن التولّي {وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ} نهي {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21)} كيف يقولون: "سمعنا" وهم في حقيقتهم "لا يسمعون"؟!

ثم يخبرنا تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22)} شرّ ما يدبّ على الأرض الصم البكم الذين لا يعقلون، فنفهم ما المقصود في هذا السياق.

{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (23)} ما المقصود بالسماع؟ أكيد أنه مقصود به المقصد الأول {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}،{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (23)} فانظروا إلى تكرار السماع.

الأمر الأول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَه}.

الأمر الثاني: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} الرسول يدعونا إلى ما يحيينا، المطلوب منا أن نستجيب، هناك نطيع، وهنا نستجيب.

{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)}.

أتى الخطاب الثاني: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ}، {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} ، {واتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً}، {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ} هذه كلها متعلقة بالخطاب الثاني.

الخطاب الثالث: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} ، {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}متعلّقة بها.

الآية الأخيرة: خطاب خبر عن آثار التقوى.

فهمنا مجمل الآيات، أربع خطابات في تسع آيات، نفهم تفسيرها ونجيب على الأسئلة، من كلام الشيخ-رحمه الله-

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}.

"لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين، أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون به معيته، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}".

إذًا هذا سيرشدنا أن نعود إلى الآيات السابقة؛ لأنه يقول: "لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين"، فأين أخبر أنه مع المؤمنين؟ أخبر في الآيات السابقة وهي في قوله تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ}[1]، وقبلها: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}[2] والآيات السابقة فيها دلالة على أن الله مع المؤمنين ينصرهم ويؤيدهم سبحانه وتعالى، فـ. **"لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون به معيته"**، إذًا هنا تقرير مهم أن معية الله تكون بالإيمان، الله مع المؤمنين، فقوموا يا أيها المؤمنين بمقتضى الإيمان الذي تدركون به معيته-سبحانه وتعالى-.

"فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}. الطاعة تكون بأي شيء؟

بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما {وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ} بمعنى لا تتولّوا.

أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله.

{وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ} **ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال".**

يعني تسمعون كلام الله وأوامره ونواهيه ثم تتولوا هذه أقبح حال يمكن أن يكون عليها الإنسان.

قال:

"{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها".

ما هي الدعوة الخالية؟ أنهم يقولون: سمعنا. سمعوا بآذانهم ولكن هذا السماع لم يرشدهم إلى العمل.

"فإنها حالة لا يرضاها الله ولا رسوله، دعوة خالية لا حقيقة لها.

(1) [سورة الأنفال: 17]
(2) [سورة الأنفال: 9]

فليس الإيمان بالتمنّي والتحلّي، ولكنّه ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال".

وهذا حق يقيني، الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، فالذين يدّعون السماع وهم لا يسمعون يعني سماع تدبر واتعاظ، فالمعاني ليست في قلوبهم، وسيتبين لنا هذا فيما بعد، فأصبح سماعهم بمنزلة العدم، فكأنهم ما سمعوا هذه حقيقتها، يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل، وهم لا يسمعون سماع تدبّر واتّعاظ، فلا يفهمون، فأصبح حالهم كالذي لا يسمع أصلًا.

"يقول تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ} من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم {الصُّمُّ} عن استماع الحق {الْبُكْمُ} عن النطق به.

وهنا إشارة إلى السماع والنطق، مطلوب سماع الحق ومطلوب النطق به.

{الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم، فهؤلاء شر عند الله من جميع الدواب التي تدب على الأرض.

لأن الله أعطاهم أسماعا وأبصارا وأفئدة، ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه وعدموا بذلك الخير الكثير، فإنهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البرية. الذين يسمعون الحق ويصلون بهذا الحق إلى رضا ربهم.

فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية، هم اختاروا لأنفسهم أن يكونوا شر البرية.

والسمع الذي نفاه الله عنهم، ما هو؟ **سمع المعنى المؤثر في القلب،** إذًا أنت تسمع الكلمات بأذنك وتسمع المعاني بقلبك، فهؤلاء منفي عنهم سماع المعنى. **وأما سمع الحجة، فقد قامت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم يسمعهم السماع النافع؛ لأنه لم يعلم فيهم خيرا يصلحون به لسماع آياته".**

وهنا معنى عظيم يجب أن نقف عنده وهو أن الله-عزَّ وجلَّ-من رحمته بخلقه أنه يعرض الحق على كل الخلق، والخلق يملكون من الأدوات التي تكفيهم لاختيار الحق، فمن كان صادقًا لإرادة الحق مقبلًا على ربه، أعانه الله، وإن كان خلاف ذلك لا يريد الحق إنما يريد العناد، يصرف الله-عزَّ وجلَّ-عنه طرق الخير، ويصبح قلبه لا يميل إلا للشر، وسيتبيّن لنا هذا أكثر في الآيات القادمة.

قال:

{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ} على الفرض والتقدير {لَتَوَلَّوا} عن الطاعة {وَّهُم مُّعْرِضُونَ} لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه، وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير، إلا لمن لا خير فيه، مَن هذا الذي لا خير فيه؟

الذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده، فأنت تعطيه الخير لا تجده يزكو وينمو إنما تجده يجادلك، **وله الحمد تعالى والحكمة في هذا".** ما المقياس؟ ستأتي الآيات الآن تبين لنا المقياس.

قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} "يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم".

عندما تسمع: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} يكون معناها: لما معكم من إيمان افعلوا، والفعل هنا هو:

"وهو الاستجابة لله وللرسول، هناك أطيعوا، هنا استجيبوا.

الاستجابة: أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه". إذًا هذه عدة أمور نعدها: ما معنى استجيبوا؟ سيتبين معنى استجيبوا إذا فهمت أن الاستجابة تأتي بعد أمر بعد خطاب، استجيبوا لله وللرسول يعني:

1- **الانقياد لما أمر به هذا.**

2- **والمبادرة إلى ما أمر الله ورسوله.**

3- **والدعوة إلى ما أمر الله ورسوله.**

4- **والاجتناب لما نهيا عنه.**

5- والانكفاف عنه والنهي عنه".

فإن أردت تجعل الاجتناب والانكفاف معًا تصبح الخامسة هي النهي عنه، المعنى: أن المستجيب يسمع الأمر، ينقاد، يبادر في ذلك، يدعو إليه ويجتنب الذي نهى عنه وينكف ويبتعد وينهى عن ما نهى الله.

قال:

"وقوله: {إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، هذا وصف، أي أن كل شيء دعاك الله ورسوله إليه وصفه أنه يحييك، هذه الفائدة الأولى من قوله: {إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} إذًا هذا يسبب لكم الحياة، وأيضًا:

وبيان لفائدته وحكمته". فكل ما دعاك الله إليه وصفه أنه يحييك وهذه هي فائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام.

لكن أهل الكفر لا يعرفون من الحياة إلا حياة الدواب، أما أهل الإيمان يعرفون أن حياة القلب والروح تكون بعبودية الله ولزوم طاعته؛ ولذلك كل عمل تعمله فأنت به تكون حيًّا، صَلِّ تكن حيًا والفائدة من الصلاة الحياة، صُم تكن حيًّا والفائدة من الصيام تكون الحياة، تَصدق تكن حيًّا والفائدة من الصدقة أنها لك حياة، اترك الغيبة تكن حيًّا، والفائدة من ترك الغيبة أن تبقى في قلبك الحياة.

إذا اقترفت ما نهيت عنه فقد مات جزء من قلبك، فأنت تذوق الموت فإذا ذقت الموت تعطل جزء من القلب، مثلما يتعطل بصر الإنسان، مثلما يتعطل سمع الإنسان مثلما تتعطل بعض أطرافه، أكيد أنك تكره أن تتعطل أطرافك، إذا تعطلت قدمك فما الذي سيجعلك تسير؟! إذا تعطل سمعك ما الذي يجعلك تسمع؟!

إذًا صفة كل عمل من الأعمال التي أمر الله بها أنها حياة، فإذا وفقت أن تقوم بكل عمل أمرت به فمعناه أنك تطلب لنفسك الحياة، فإذا انتشرت الحياة في قلبك وفقت أن تمارس حياتك بصورة صحيحة، كما أن بدنك لو كان حيًا كله وأجزاؤه متكاملة وليست مريضة ولا مشلولة فأنت تكون في حياة دنيوية صحيحة.

إذًا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ} فلتكن طاعتكم من صفة الاستجابة لله وللرسول، انقادوا، بادروا، ادعوا، اجتنبوا، انكفوا، انهوا الناس عن ما نهاكم الله عنه.

قال:

"ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} فإياكم أن تردّوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم، تختلف قلوبكم عليكم فلا تستجيب.

فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء". فعلى العبد أن يكثر من قول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك)؛ ولذلك في الحديث الذي رواه البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى-رضي الله عنه-قَالَ: "كُنْتُ أُصَلِّي فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ-صلَّى الله عليه وسلَّم-فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَقَالَ: ((مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ}))" فالاستجابة أمر عجيب، مطلب عظيم، العبد في هذه الحال يكون غاية في المبادرة إلى الطاعة.

بمعنى عندما يأتي أمر الله لا يقابل من قلبك كسل، ردّ، عدم عناية، لا تسمع أمر الله سماع من لا يعنيه الشأن، فإن الله-عزَّ وجلَّ-حينما يخاطبك في القرآن بالأوامر والنواهي يراد منك من ورائها أن ينشرح صدرك لها، أن يدرك عقلك هذه الأوامر، فلا تكن مصابًا بالصمم والبكم وسلب العقل، تسمع الآيات فكأن الخطاب ليس لك! بل استجب بقلبك إذا دعاك لما يحييك، لا تكسل عن أن تسمع بقلبك ما يصلحك من أعمال البر والطاعة، ولا تكن ممن يوجه له الخطاب فكأنه لا يسمع الخطاب، ولا تكن ممن سمعوا وهم لا يسمعون في الحقيقة.

إذًا إذا أردت الحياة، عليك بالاستجابة لأمر الله وللرسول.

واعلم {أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} فبادر واستعجل بالإجابة، فإن قلبك اليوم ليس مثل قلبك غدا وقلبك الساعة ليس مثل قلبك بعد ساعة، بادر بالطاعات، واعلم أنه ستأتي اللحظة التي ينتهي فيها وقت العمل، فيبدأ الأمر من عند السماع {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ

تَسْمَعُونَ(20)} اسمع، لا تتولَّ بقلبك عن أمر الله وأمر الرسول، ولا تكن كالذين قالوا: سمعنا. وهم في الحقيقة لا يسمعون.

واعلم أن {شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} لا هم يسمعون، ولا هم يأمرون، ولا هم يعقلون، وعلامة سماعك أن تستجيب، فلا يمر عليك الأمر أو النهي أو الخبر أو الحال في كلام الله وكلام رسوله وكأنك لست أنت المعني، وتسمع الخطابات كأن غيرك هو المعني.

{إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}أنت اسمع هذا على أنك تطلب الحياة على كل جزء من أجزاء قلبك كما أنك تطلب الحياة لكل جزء من أجزاء بدنك، وعليك السرعة في الاستجابة القلبية ومن ثم الحركة البدنية.

{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} فاعمل قبل أن تنقطع عنك القدرة على العمل.

قال:

"{وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} أي: تجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه".

وعندما تسمع المؤذن يقول لك: (حي على الصلاة حي على الفلاح)، استجب لما يحييك، لا يراك الله كسولًا متملِّلًا لا تستجيب لأمره، استحِ أن يدعوك لما يحييك وأنت في كسل عن هذا الذي يدعوك إليه.

ولابد أن تعلم أنّ الله يحول بين المرء وقلبه، فكم من طاعة أرادها الإنسان لكنه لم يستجب لداعيها كما ينبغي، وتلكّأ، وتباطأ، وتراجع، وهو يسمع الداعي، ولا شيء يقطعه، صحة في بدن، وكمال على العقل، وقدرة على الفعل، ومع ذلك هو يتلكّأ! فاسأل المحرومين كيف حرموا؟! وكيف عن باب الله رُدّوا! والسبب هو **قلة العناية والبرود وعدم السرعة في الاستجابة**.

إذًا هذا أمر غاية في الأهمية يجب علينا العناية به، استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي ففيه حياتكم، لابد من الإجابة لكل ما دعا الله ورسوله إليه، فكل واحد منا إذا بلغه قول الله أو قول الرسول في حكم من الأحكام الشرعية عليه أن يتفهمه، يسمعه سماع فهم يفهمه، ويسأل عنه ثم يبادر

إلى العمل كائنًا من كان، ويدعو غيره ويترك ما عداه، إذًا ستُسأل يوم القيامة: ماذا أجبتم المرسلين؟ فعليك بالعناية بكتاب الله وسنَّة النبي، وعليك بفهمها، تسمعهم سماع فهم تفهمهم وتستجيب.

بادروا بالاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها، إما بأن ينصرف القلب وقواه إلى غير الاستجابة أو بزوال القلب الذي تعقلون به بالموت، وأحوال القلب واعتقاداته وإراداته وتصرفه أمر في إدراكه خارج قدراتنا، فالله هو الذي يملكه، والله هو الذي يصرفه، فنسأل الله أن يصرف قلوبنا وخواطرنا وإدراكاتنا على ما يحب ويرضى.

وتبيّن لنا قوله تعالى: {وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} وأن الله سيحشركم إليه فيجازيكم على استجابتكم التي أجبتموها وبالعكس، وعلى إساءتكم وعدم الاستجابة، يتعلق بهذا قوله تعالى:

قال:

"{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً} **بل تصيب فاعل الظلم وغيره،** متى؟

وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره، فأنت لو كنت استجبت إلى الله ورسوله، لكان من استجابتك لله ورسوله أن تنتهي وتنكف وتنهى غيرك عنه، فلما لم تحصل استجابة كما ينبغي لابد أن تعرف أن هناك فتنة ستقع لا تصيب فقط الذي يقوم بالمنكر وإنما تعم، والسبب أن الناس لم يستجيبوا لأمر الله كما ينبغي، لم ينهوا.

وتقوى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، أي: يقوى اتقاء هذه الفتنة بالنهي عن المنكر.

وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن." وهذا طبعا على حسب إمكانيات كل شخص منا، فهذا يكون في بيته، هذا يكون في متجره، هذا يكون في مدرسته، كل واحد منا ينهى ما استطاع، لكن في زمن الفتنة التي تعم ويصبح ضجيجها مليء نقول في مثل هذا الزمن وأنت تنهى هذا وتنهى هذا ولا أحد يرد نقول: "أخمدوا ذكركم وأكثروا من ذكر ربكم"، فإن اليقين أننا سنلقى ربنا وإليه نحشر، والدنيا هذه كلها سراب.

إذًا الأصل أننا نستجيب وننكر على الناس ونعلمهم السنَّة، ونمنعهم من البدعة ونمنعهم من مخالفة سنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، ونأمرهم بتعظيم الله وتعظيم الرسول وتعظيم القرآن، ونفعل هذا كله ونحن

نعلم أن ظلمه هذا ووقوعه في الخطأ سيعود علينا، لكن لو فعلنا هذا كله ونهينا الناس ولم ينتهوا خصوصًا في الفتن العظيمة، إذًا علينا أن نحمد ذكرنا ونذكر ربنا.

قال:

"**{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} لمن تعرض لمساخطه، وجانب رضاه.** ومن أجل أن تعتني وتستجيب لأمر الله ويكون منك كامل الإقبال على الله، اذكر نعمه:

{وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ} يقول تعالى ممتنًّا على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ} أي: مقهورون تحت حكم غيركم {تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ} أي: يأخذونكم. وهذا الخطاب في أصله للنبي وللمهاجرين ولكل من امتنّ الله-عزَّ وجلَّ-عليه بهذه المنّة، نعمة الحماية من الأعداء، الإيواء، هذه نعم عظيمة.

{فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} فجعل لكم بلدًا تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

{لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} الله على منته العظيمة وإحسانه التام، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا". بأن تستجيبوا لما أمركم، فاشكروا لله نعمه، فإنّ ربكم المنعم، والشكر يأتي من ورائه المزيد.

إذًا هذان خطابان {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}.

نأتي إلى الخطاب الثالث:

قال:

"**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه.**

انظر إلى التنوع حول نفس الأمر: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}،{اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ}،{لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}.

فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا، فمن أدى الأمانة، استحقّ من الله الثواب الجزيل".

ما هي الأمانة؟ هي الأوامر والنواهي، الآن سيكون ترك الائتمار بالأوامر، يقول:

"ومن لم يؤدها بل خانها، استحقّ العقاب الوبيل، وصار خائنًا لله وللرسول ولأمانته. معنى ذلك: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}،{اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ}،{لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}. إذًا الطاعة، الاستجابة، النهي عن الخيانة، إذا أطعت الله واستجبت لن تكن خائنًا، وإذا فعلت المعاصي وما تركت إذًا هذه خيانة.

وصار خائنًا لله وللرسول ولأماناته، منقصًا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات وهي الخيانة، مفوتًا لها أكمل الصفات وأتمها وهي الأمانة.

إذًا ترك الإنسان ما أمر الله يسمّى خيانة، ماذا تسبب له هذه الخيانة؟ الآية التي بعدها تدلك لماذا يمكن أن يستهين الإنسان ويقع في الخيانة، يقول:

{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28)} ولما كان العبد ممتحنًا بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطاها، وتردّ لمن استودعها.

فإذًا كن حذرًا من أن تخون، {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ} فلا تخونوا بسببهم وتقعوا في الحرام، {وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}.

فإن كان لكم عقل ورأْيٌ، فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة. والله المستعان، الله يرزقنا عقول رشد ترشدنا إلى أعلى المصلحتين.

فالعاقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم". إذًا {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً}، واذكروا نعمة الله {إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ} ، {لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}، {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} فلا تجعلوها سببًا للخيانة، {وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}.

ينتهي هذا المقطع في الخطاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا} أي: إن تطيعوا وتستجيبوا ولا تخونوا فتكونوا من الأتقياء ستكون لكم هذه العطايا من الله.

(إن) هذا الشرط {إِن تَتَّقُوا اللَّهَ} يحصل لكم ما سيأتيكم، والتقوى ستكون في طاعتنا للأوامر والنواهي واستماعنا لها، استماع استجابة، نستمع الأوامر ونستجيب، ونتقي الفتنة، فإن استجابتنا تجعلنا نقوم نحن بالعمل، وننهى غيرنا، ولا نخون، ولا نجعل محاب الدنيا تجعلنا نخون الأوامر والنواهي، ونتوب إلى الله مما حدث منا، الآن إذا حققت هذا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا}.

قال:

"امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئًا كثيرًا، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء. الآن كما اتفقنا التقوى إشارة إلى ما سبق.

كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها. الأربع أشياء كما نقرؤها في الآية:

1. {يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا}
2. {وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}
3. {وَيَغْفِرْ لَكُمْ}
4. {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}

قال:

الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة. إذًا أنت تسير في الحياة قد تختلط عليك الأمور وهذه المشكلة العظيمة أن الناس وهم يقرؤون في كتاب الله يفهمون ما يخاطبون به لكن عندما يعيشون الحياة لا يعرفون كيف يترجمون ما عرفوه من كلام الله وكلام رسوله إلى واقعهم، عندما يسمعون كلام المنافقين ربما مارسوها وهم لا يربطون بين الصفات التي يسمعونها وبين ما يمارسون، ربما واجهوا منافقين ما يعرفون كيف يتعاملون معهم لأنهم ليسوا متصورين أن هؤلاء فيهم

هذه الصفات، ربما واجهوا مؤمنين اختلط عليهم الأمر، ربما واجهوا اختبارات ما يعرفون أن هذا اختبار.

فإذًا عندما يكون معك فرقان تستطيع أن تفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، من هم أهل السعادة ومن أهل الشقاوة، فلما يأتي أحد يكلمك عن تعدد الأديان على أنه حرية، ويبذل قصارى جهده أن يقنعك بالأمر ويجلبون عليك بخيلهم ورجلهم ويد الإعلام الخبيثة تعبث بعقول الناس، أنت يكون معك فرقان حتى لو ما معك إجابات تفصيلية على ما يقولونه اتركه، لكن في قلبك تفريق أن هذا حق وهذا باطل، وهذه هبة من الله لك، إن كنت تقيًّا تطيع الله والرسول وتستجيب ولا تخون، فإنه سيكون معك فرقان.

"الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق، وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

إذًا اتق الله وابذل جهدك وما يقع من خطأ يغفره الله لك، يغفر لك الصغائر ويكفر عنك الكبائر.

الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه". فيكون لك الفضل العظيم من الله-عزَّ وجلَّ- {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.

إذًا معنى هذا أن صاحب التقوى سيكون له ثبات في قلبه ويكون له بصر ثاقب ويكون عنده حسن هداية فيخرج من الالتباس، ينجو من الشُبهات، والله يكفر عنه سيئاته ويغفر له الصغائر والكبائر، ويتفضّل عليه بأمور عظام، يتفضّل عليه بخيرات لا حصر لها.

فاللهم اجعلنا من الأتقياء، واجعلنا ممن أطاعك وسارع بالاستجابة، ولم يخنك ولم يخن رسولك-صلَّى الله عليه وسلَّم-، وكان من الأتقياء اللهم آمين.

اللقاء العاشر

تفسير الآيات 67 – 72 من سورة التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا العاشر من سلسلة لقاءات هذا الشهر المبارك لهذا العام المبارك 1434، أسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يجعله شهر خير وبركة علينا وعلى المسلمين، وأن يجمع كلمة المسلمين، وأن يجنبهم الفواحش والفتن ما ظهر منها وما بطن.

وفي يومنا هذا المبارك–يوم الجمعة–ستكون الآيات التي نتكلم عنها تؤيد ما افتتحناه وما ابتدأناه في هذا الشهر من الكلام عن **أهمية الإيمان والخوف من ضده.**

الإيمان النعمة العظيمة التي وهبها الله–عزَّ وجلَّ–لعبيده، ودلّهم على طريقها، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل الكتب من أجل أن يؤمنوا إيمانًا يحملهم على الإحسان، ويتحصل لهم من وراء هذا الإيمان الأمن في الأوطان، والسلامة في الأبدان، وهذا ما يسعى إليه كل الخلق، ويطمح إليه الأفراد والجماعات على مرّ العصور.

فالإيمان هو سبيل الطمأنينة طريق الرخاء والاستقرار، به تعمّ البركات، وبه تصلح الأحوال، وتهنأ الحياة، فإذا حصل الإيمان، وحصل العمل الصالح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وُجِدَ الأمن بالإيمان، فتتم النعمة، وتتجلى الكرامة، وتتحقق الحياة الهادئة.

وقد درسنا فيما درسنا عن الإيمان قول إبراهيم–عليه السلام–لما كانوا يخوفونه بغير الله: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[1] فكان الجواب من الله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (82)}[2] آمنوا واستقرّت قلوبهم على التوحيد، هؤلاء يستحقّون الأمن، يستحقّون الرحمة.

والذين أظهروا الإيمان وأبطنوا خلافه، كانوا سببًا في زعزعة الأمن في كل مكان، وسيتبيّن لنا إن شاء الله من خلال الآيات التي سنقرؤها ونتدارسها اليوم كيف هذا الأمر واضح جليّ بيّن:

(1) [سورة الأنعام: ٨١]
(2) [سورة الأنعام: ٨٢]

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۘ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (68) كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (69) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)}[1].

يقول تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ} ماذا يفعلون؟

1. {يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ}
2. {وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ}
3. {وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ}

وصفهم الله بهذه الأفعال ثم أخبرنا لماذا لم يوفق هؤلاء؟ {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} حكم عليهم بالفسق.

(1) [سورة التوبة: ٦٧-٧٢]

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (68)} هذه صفاتهم هذه عقوبتهم، وهذه العقوبة ليسوا فيها منفردين إنما حالهم مثل حال من قبلهم:

{كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (69)} وأنتم يا أيها المنافقون مثلهم، فعلتم مثل فعلهم وجزاؤكم مثل جزاؤهم.

{أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)} هذه الأخبار ألم تأتكم وكانت مشهورة يتواتر الناس نقلها عن هؤلاء الأقوام الذين عاقبهم الله (قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات) كل هؤلاء كانوا قبلكم وأتت أخبارهم إليكم وكيف أهلكهم الله.

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ} في مقابل هؤلاء-{بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ}-كيف يعاملهم الله؟-{سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ}-هنا في الدنيا- {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}. إذًا في الدنيا هذه أوصافهم وهذه أفعالهم، في الآخرة:

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ}-ما وصفها؟- {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}إذًا هذه الآيات فيها خبر عن المؤمنين ووصفهم يقابل خبر عن المنافقين ووصفهم.

وإذا سمعنا أمس في الآيات التي درسناها من سورة الأنفال الأخبار عن المؤمنين، وكانت سورة الأنفال في وصف أحوالهم وكمالهم وكيف كانوا من جهة أفعالهم كانت التوبة هي السورة الفاضحة للمنافقين.

فما أحسن هذه الحال: أن تقرأ عن صفات المؤمنين في الأنفال، فترغب فيها، وتقرأ عن صفات المنافقين في التوبة فتبغضها وتتقرب إلى الله بالبعد عنها، ثم إن القرآن مثاني، يوصف المؤمنين ويوصف أمامهم ضدهم من الكفار والمنافقين، لكن في سور يأتي الأمر بالتفصيل، يعني في الأنفال بالتفصيل صفات المؤمنين والأوامر الموجّه لهم وإن ذُكر خلافهم، وفي التوبة صفات المنافقين وإن ذُكر المؤمنين.

فكنا سمعنا أمس في الأنفال الأوامر من الله والخطاب للمؤمنين أن يطيعوا الله ويطيعوا رسوله، وأن يستجيبوا وأن لا يخونوا، وسمعنا أنه علينا أن نكون من المتقين، واليوم أتتنا الأخبار عن المنافقين.

كيف تكون علاقتهم مع بعضهم؟ وما هي صفاتهم؟

نتعلم الشرّ ليس للشرّ إنما لنتوقّاه، وهذا كموقف حذيفة–رضي الله عنه–لما كان يسأل النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–عن الشرّ والناس كانوا يسألون النبي عن الخير؛ لكي يحذر، والله من رحمته بنا وصف لنا طريق الخير لنسير فيه، وطريق الشر لنميزه فنبتعد عنه.

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

"يقول تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ} لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضا، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.

يعني إذا كان المنافقين بعضهم من بعض فأكيد المؤمنين ليس لهم علاقة وليس بينهم وبينهم حالة من التولّي، يعني ليس لهم في ولايتهم شيء.

ثم ذكر وصف المنافقين العام، الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، إذًا المنافقون والمنافقات الذكر والأنثى منهم بعضهم من بعض عندما نقرأ في صفات المؤمنين بعضهم من بعض، والمنافقين والمنافقات بعضهم من بعض يعني متشابهين في النفاق كتشابه الشيء الواحد بعضهم من بعض، معنى ذلك كأنهم قطعة واحدة متشابهين وهذا فيه قطع لولايتهم للمؤمنين.

ما صفتهم؟ **يقول الشيخ: لا يخرج منه صغير ولا كبير، هذه الصفات:**

1– **فقال: {يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ}** بكل وسيلة يمكنهم أن يأمروا بها، ما هو المنكر؟ **وهو الكفر والفسوق والعصيان.** فأي منادي ينادي في أي مكان ينادي الناس للكفر والفسوق والعصيان فهو ممن يأمر بالمنكر ومن ثم حقق الصفة الأولى من صفات المنافقين.

2– **{وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ} وهو الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة.** وعلينا أن نفهم الأمر بهذا الترتيب، يعني إذا سمعت منادٍ ينادي إلى الكفر أو

الفسوق أو إلى العصيان–إلى معصية الله–وإلى الخروج عن طاعة الله، أو والعياذ بالله يصل إلى حد ينادي بالكفر، وإذا سمعته في مقابل هذا يستهزئ بالإيمان، **ينهى عن الإيمان**.

وينهى عن الأخلاق الفاضلة المبنية على الإيمان فوجدته يشنع على الأوامر الشرعية التي تضبط لك الأخلاق فيشنع على الحياء وأسبابه، ووسائله الموصلة له، يشنّع على التزامك بالآداب الشرعية، كالأكل باليمين، هذا يعني من الأمثلة اليسيرة التي تُضرب وإلا الأمر أعظم في نهيهم عن الأخلاق الفاضلة المبنية على الإيمان.

والأعمال الصالحة التي هي أيضًا مبنية على الإيمان.

والآداب الحسنة التي أدّبنا بها الله–عزَّ وجلَّ–وأمرنا بها على لسان رسوله، فهذه الأخلاق والأعمال والآداب ليست بصالحة ولا فاضلة ولا حسنة إلا إذا كانت مبنية على الإيمان وكانت من مصدر الإيمان.

لو سمعنا هؤلاء الذين رأيناهم يأمرون بالفسق والعصيان وينهون عن الإيمان لو سمعناهم ذات يوم يدعون الناس إلى شيء من الأخلاق، يطالبون الناس بلين الكلام، يطالبونهم بالاحترام للكبير، فهل هذا فيه خروج عن وصفهم في أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف؟ فكأني أسمعهم الآن يأمرون بالمعروف، كأني أسمعهم يأمرون بأشياء طيبة، فإننا أُمرنا بلين الكلام، وأُمرنا باحترام الكبير وأُمرنا بالشفقة وأُمرنا بالرحمة.

نقول: لا، هذا يبقيهم على وصفهم، إلا أن ما تسمعه يأمرون به فإنه لابد أن يكون موافق لهواهم، ومِن هواهم جبلتهم الطبيعية، فإنّ من الجبلّة الطبيعية حبّ الرحمة، من الجبلّة الإنسانية الطبيعية حب لين الكلام، فهذا هواهم جبلتهم، هنا اتفقت جبلتهم مع هواهم، فحينما تسمعهم يقولون هذا الكلام لا تغتر وتظن أنهم يأمرون بالمعروف.

إنّ المعروف هو كل عمل أمرت به الشريعة مبني على الإيمان، لابد أن يكون مبني على الإيمان، فالأخلاق الفاضلة عندنا والأعمال الصالحة عندنا والآداب الحسنة عندنا هي ما تكون مبنية على الإيمان، وأنت أينما تلفت وجدت مثل هؤلاء، وكان أول الأمر أصواتهم شاذة تبغضها، كل نفس أبيَّة، ويرفضها كل صاحب شهامة وكرامة، لكن اليوم مع اعتمادهم أسلوب تلبيس الحق بالباطل أصبح الناس يسمعون الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ويستسيغونه!

ولذلك عندما نصل إلى الآيات التي فيها وصف المؤمنين نرى ما هو دورنا تجاه هذه الظواهر التي طمّت وعمّت في الإعلام والناس تعرّضوا لها بصور شتى.

3- **{وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} عن الصدقة وطرق الإحسان، فوصفهم البخل.** وهذه صفة عجيبة من صفات المنافقين، فإن أهل النفاق لهم مع الإنفاق قصة، أهل النفاق أعداء للإنفاق! وعندما نعلم أنّ كلمة "صدقة" التي أصلها الصدق، فالصدقة تُبرهنُ على صدقِ إيمان المؤمن، ولكي تتأكد من هذا المعنى نعود إلى كلمة صدق، الصدقة أتت من صدق، وأصل مادة الصدق هي القوة، فإذن الصدقة تدل على قوة الإيمان، فلذلك تجد كثيرًا في القرآن اقتران أمر الإيمان بأمر الصدقة، فأنت أيها المؤمن تبرهن على قوة إيمانك بحرصك على الإنفاق، وهذا المنافق يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف يقبض يده عن طرق الإحسان للخلق، لكننا نسمع أنه تبرّع هنا أو خرج هنا لعمل خيري.

لا زلنا نقول: لا تغرك مثل هذه الأعمال، فإنها توافق الهوى، وهناك من البرامج التي يجمعون بها تبرعات ويستعطفون بها قلوب الخلق، ويبرزون بها في المجتمع، تراها نفاق في نفاق! وترى حرصهم على أن يظهروا بأي صورة كانت يُدلِّل لك كيف أن هؤلاء يقبضون أيديهم، والله-عزَّ وجلَّ-يصف لنا صفة رابعة من صفاتهم:

4- **أنهم نسوا الله، فلا يذكرونه إلا قليلًا،** ومن صفات المؤمنين الذين يؤمنون بعظمة الله وبكماله وبجلاله وبلقائه، ويؤمنون بالأخبار التي أتت عنه، يذكرون الله كثيرًا، وذكرهم لله سواء كان في أذكار الصباح والمساء أو أذكار بعد الصلاة سواء كانت الأذكار مطلقة أو مقيدة، كلهم هذا وهم في طمع أن يذكرهم الله! كل هذا الذكر تعظيمًا لله وطمعًا في أن يذكرهم الله العظيم، فتسعد دنياهم، فلا إله إلا الله كم للذكر من مصالح!

فهؤلاء **نسوا الله فلا يذكرونه إلا قليلًا،** سواء هذا النسيان على لسانهم أو نسوا أن يقصدوه بأعمالهم، والمؤمن عكسهم قلبه شديد الذكرى لله، فإذا صنع شيئًا، قصد قلبه رضا الله، وألحّ قلبه ولسانه على الله بالقبول، وإذا عمل بيده شيئًا للمؤمنين يريد أن ينفق، نظر إلى يده وهي تعمل في سبيل الله فرجا الله بقلبه أن يحرمها على النار هي وسائر بدنه، إذا خبز بيده للمؤمنين، إذا عمل بيده للإنفاق على أهل

الحاجة، نظر ليده وتمنى على الله أن تكون هذه الأعمال كفارات لأشياء بطشت بها يده فيما لا يرضي الله.

إنّ المؤمن دائم الذكر لربه بقلبه، منيب دائمًا إلى ربه، فيتقلّب بين رجاء وخوف، وبين حبّ وتعلّق، **وهؤلاء نسوا الله فلا يذكرونه إلا قليلًا**-كما يقول الشيخ-**{فَنَسِيَهُمْ} من رحمته، فلا يوفقهم لخير** في الدنيا، فلا تجد أوقاتهم معمورة بالخيرات، تمرّ عليهم الأزمنة الفاضلة، بل عمرهم الشريف الذي هو رأس مالهم يمرّ فلا ترى أنهم يملؤونه بما يشرفهم وقت ما يلقون ربهم! والسبب أنهم ابتدؤوا نسوا الله فنسيهم، فلا يوفقهم لخير، فليس هناك في فكرهم شيء يجول غير هواهم! لكن أهل الإيمان الله-عزَّ وجلَّ-يفتح لهم أبوابًا ينتفعون بها وهم في أضيق المواقف، ترى الرجل من أهل الإيمان يمرض على سريره فيكون مغتنمًا لمرضه هذا في طاعة الله، غير أنه يحتسب آلامه على الله فإنك تراه يعظ مَن يزوره، يعظ المريض الذي بجانبه، يعظ الممرض الذي يمرضه، تجده يذكر الله ذكرًا يجعل الناس يذكرون الله معه، فترى هؤلاء من ذكرهم لله ذكّروا غيرهم، المنافقين نسوا الله فنسيهم من رحمته ولا يوفقهم لخير، وينتهي الأمر أنه **ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين.** وهم يستحقون ذلك.

وأما ما نعتقده في قول الله: {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} فإننا نعتقد أن هذه الصفة من الصفات المقيدة، **ومعناه في حقّ الله**: الترك عن قصد وعمد، فإن النسيان في لغة العرب له معنيين:

1) النسيان بمعنى: الذهول عن الشيء، وهذا لا يكون في حقّ الله، ولا يوصف الله به ولا يقصد به هنا، ولا يكون هذا هو مفهوم الآية.
2) المعنى الثاني في لغة العرب النسيان بمعنى: الترك عن عمد عقوبة، وهو صفة مقيدة في حق الله، فإن الله ينسى من نسيه، يتركه عمدًا عقوبة له.

يحكم عليهم الله يقول: **{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} حصل الفسق فيهم**، الضمير المنفصل (هم) يدل على الحصر، **حصر الفسق فيهم؛ لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم"** يعني خروجهم عن الطريق أعظم من خروج غيرهم، فالإنسان المؤمن قد يرتكب معاصي، لكن لا يكون حاله مثل حالهم من جهة

أن الإيمان لم يدخل إلى قلوبهم، بل يأمرون بالمنكر، يعني الإنسان المؤمن ممكن أن يقع في معصية لكن لا يصل لأن يعتقد أن المنكر هو المعروف والمعروف هو المنكر، فيدعو إليه.

قال:

"**بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم**،-فظهر من العذاب أن حالهم مختلفة-.

وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد". والمعنى: إن المنافقين هم الفاسقون الكاملون في الفسق، وهم بين المؤمنين موجودين، والاحتراز منهم أمر صعب لأنهم يختلطون بالناس اختلاطًا يشق معه التفريق إلا أن الصفات هي التي تبين لك.

قال:

"**{وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}** هذه العقوبة تبيّن أنهم أهل فسق عظيم.

جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك المنافقين والمنافقات والكفار وعدهم الله نار جهنم، هي حسبهم، ولعنهم الله، ولهم عذاب عظيم، إذن الجمع واللعنة والخلود، جمع المنافقين والكفار في النار، وكانوا خالدين فيها، السبب: **لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعاداة لله ورسوله، والكفر بآياته**. إلا أن المنافقين أبطنوا الكفر، والكافرين أظهروه.

يقول تعالى محذرا المنافقين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة. كأن في هذا دعوة لهم للعود.

{قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ} أي: قرى قوم لوط. وسمُّوا بهذا الاسم-كما هو معلوم-لأنهم ائتفكوا الحال، يعني المؤتفكات هذه أتت من الإفك، والإفك هو: الكذب، والكذب المقصود في قوم لوط: قلب الحقائق، ائتفكت بهم يعني انقلبت بهم، هم قلبوا الحالة الإنسانية فالله-عزَّ وجلَّ-قلب عليهم ديارهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل.

فكلهم {أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالحق الواضح الجليّ، المبيّن لحقائق الأشياء،-فماذا فعلوا؟- **فكذبوا بها، فجرى عليهم ما قص الله علينا"**، كلٌّ في موطنه، يعني تقرأ في قوم نوح مَنَّ الله عليهم بنعم منها تطويل أعمارهم لكنهم ما استجابوا فأهلكهم الله بالطوفان. عاد قوم هود أنعم عليهم بنعم منها مزيد قوتهم، ثم ما استجابوا فأُهلكوا بالريح، وثمود وهم قوم صالح أنعم عليهم منها القصور والدور العظيمة ومع ذلك ما استجابوا فأُهلكوا بالرجفة، وهكذا.

وأنتم لو قرأتم سورة يونس وسورة هود سترون تفصيل لهؤلاء الأقوام وكيف أعطاهم الله وكيف فعلوا هم.

قال:

"فكلهم {أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالحق الواضح الجلي، المبين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فجرى عليهم ما قص الله علينا، فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم،-ماذا فعلتم؟-

الأمر الأول: **استمتعتم بخلاقكم**، وهنا نلاحظ أن الشيخ قدّم وأخّر، يعني في الآية {كالذين من قبلكم} الذين هم الأقوام {كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالًا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم} ويقول الله-عزَّ وجلَّ-بعدها: {ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم}، فلما شرح الشيخ بيّن الذين من قبل، وأن هؤلاء هم الذين قيل في حقهم أنهم استمتعوا بخلاقهم.

فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم، استمتعتم بخلاقكم، ما خلاقكم؟ **أي: بنصيبكم من الدنيا فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه"**، لكم نصيب من الدنيا كُتب لكم والناس كلهم كُتب لهم نصيب من الدنيا، ماذا كان الواجب بنصيب من الدنيا؟ تنتفع به، في أي شيء؟ في أن تجعله طريقًا يوصلك إلى الله، لكن هم ماذا فعلوا؟ استمتعوا بخلاقهم يعني نصيبهم من الدنيا استمتاع على وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه، ما وصلتم به إلى الله، هذا الأمر الأول، أعرضتم عن ما يجب عليكم أن تنتفعوا به، هذه القوة التي أعطاكم في أبدانكم، هذه الدور، هذه الأموال، هؤلاء النساء، كان المفترض أن تستخدموهم للوصول. بل ماذا فعلتم؟ قال:

"**واستعنتم به على معاصي الله**، يعني هذا الخلاق، هذا النصيب استعنتم به على معاصي الله، فقواكم وأموالكم ودوركم كلها كانت تزيد بُعدًا عن الله، وأنتم تتعاملون مع هذه يقول: **ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم** يعني كل همكم وإرادتكم نفس النعمة وليس رضا المنعم، وليس اغتنام النعمة فيما يوصل إلى رضا الله، فكان هذا الخلاق عليكم وليس لكم، فاستعملتموه فيما يوصلكم إلى الهلاك.

والخلاق هو الحظ–نصيب–، فهم عجّلوا حظّهم في دنياهم وتركوا باب الأخرة، هذا ما فعلوه، فاستمتعتم أنتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم، ولاحظوا الذين من قبلنا ومن قبلهم ماذا كان حالهم؟ الذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا، فاستمتعوا بخلاقهم، هم فعلوا هذا الشيء، انتفعوا بنصيبهم فقط للدنيا، والمنافقين ماذا فعلوا أيضا؟ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم، كما فعل الذين من قبلكم.

الأمر الثاني: **{وخضتم كالذي خاضوا}، أي: وخضتم بالباطل والزور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق**، يعني لما كان همكم الدنيا واللذات أي أحد يأتي يأمركم بخلافه تخوضون وتجادلون ليبقى حظكم كما هو.

فهذه أعمالهم وعلومهم، أعمالهم: **استمتاع بالخلاق**، وعلومهم: **خوض بالباطل**، استمتعوا وخاضوا، من جهة العمل استمتعوا باللذات، من جهة العلم يخوضون بالباطل لا يقبلون الحق.

لذلك فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم ممن فعلوا كفعلهم.

هذه الدنيا ما علاقتي بها مادام ليس مطلوب منا أن نفعل هذا الفعل–نستمتع بخلاقنا من جهة الدنيا واللذائذ ولا نخوض في الباطل–يقول: **وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدنيا، فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله**، إذًا نصيبك من الدنيا تأخذه الذي كتب الله لك لكن من أجل أن تستعين به على طاعة الله.

وعلى ذلك: قدمك تسير بها لطاعته، يدك تبطش بها لمرضاته، لسانك تنطق به بالحق والخير والطيب من الكلام، عينك تبصر بها ما يزيدك إيمان، أذنك تسمع بها ما ينفعك من كلام الرحمن، وهكذا. هذا من جهة العمل، نصيبك وما خولت من الدنيا فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله.

وأما علومهم فهي علوم الرسل، ليس خوض بالباطل ونظريات، وكل ما تكلم أحد بشيء من الباطل استقبلناه، علوم المؤمنين علوم الرسل، فلا تجعل قلبك مرتعًا لكل ما هبّ ودبّ، الذي تستقبله هو علم الرسل.

وهي الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية"، فتقرأ القرآن وتقرأ السنَّة وتفهم القرآن والسنَّة على فهم من سلفك، وتسأل في القرآن وتبحث وتجد من يرشدك، والحمد لله كتب أهل العلم متوافرة والعلم قريب والله قد أورثنا بفضله علوم من قبلنا، وخلّص لنا هذه العلوم من الباطل، وهو أعلم بضعفنا وأعلم بالفتن التي تحيط بنا، فهذا كله من فضله سبحانه أن جمع لنا الخيرات، فتوفرت لنا الكتب، وتوفر لنا منهج صافي، فبقي أن تكون علومنا بعيدة عن التخليط؛ ولذلك في كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنَّة من صحيح البخاري)، مطلوب منا أن نعتصم بالكتاب والسنَّة، في باب الاِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}.. نقل عن ابن عون هذا الكلام الذي هو منهجنا الذي نحب أن يكون طريق ننشره بيننا وبين بعض ونرجو من الله أن يثبتنا عليه.

وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ: "ثَلاَثٌ أُحِبُّهُنَّ لِنَفْسِي وَلإِخْوَانِي:

1) **هَذِهِ السُّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا وَيَسْأَلُوا عَنْهَا.**
2) **وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ.**
3) **وَيَدَعُوا النَّاسَ إِلاَّ مِنْ خَيْرٍ".**

وهذه ثلاثة عظيمة، إذا نهجها الإنسان دخل في علوم الحق وخرج من الجدل الباطل.

فالأولى هي: تعلم السنَّة، والثانية هي: تعلم القرآن، وتسأل عن هذا وتسأل عن هذا، والأمر الثالث: لا تخوض فيما ليس لك، دع الناس إلا من خير، إمَّا أن تأمرهم بالخير أو تتركهم، وهذا عبد الله ابن عون الإمام القدوة، عالِم البصرة المزني الحافظ.

وقد قال ابن المبارك: "ما رأيت أحدًا أفضل من ابن عون".

على كل حال، المقصود الآن أنك لا تعرض نفسك وإيمانك للمجادلات بالباطل، إنما تعلم علوم الرسل وتصل بهذه العلوم إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل، إذا كنت من أهلها، وإذا كنت لست من أهله فعليك بالعناية بما ينفعك.

يقول الله–عزَّ وجلَّ–في شأن عقوبتهم:

" **{فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ} إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع. {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} حيث تجرؤوا على معاصيه**، والله أمرنا أن نطيع الله ونطيع رسوله، فتجرؤوا على المعاصي وعصوا رسوله، ولم يستجيبوا لله، وخانوا الله.

حيث تجرأوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد". ولم يكونوا من أهل التقوى. إذًا كل الناس لهم نصيبهم من الدنيا، كل الناس لهم حظهم من الدنيا ولهم حظهم من العلوم، لكن ماذا فعلوا بها؟ لا تكن مثل من استمتع بخلاقه استمتاع لا يرضي الله، إنما كن من أهل الايمان الذين يستمتعون بنصيبهم وما خولوا من الدنيا على وجه الاستعانة به على طاعة الله، واجعل علمك هو أن تسأل على هذه السنة وتسأل عن هذا الكتاب، وتترك الناس من شرك، ولا تجادل للباطل لمجرد الانتصار لرأيك، ولا تخوض مع الذين خاضوا {وخضتم كالذي خاضوا}، لا تخوض فتكون شبيهًا بالمنافقين.

إذًا هؤلاء المنافقين يأمرون بالمنكر، ينهون عن المعروف، يقبضون أيدهم، نسوا الله، استمتعوا بخلاقهم في الدنيا على وجه اللذة، خاضوا في العلوم وتكلموا فيما لا يعنيهم ولا يعرفونه.

ومن الخوض اليوم: إرسال ما تدرك معناه وما لا تدرك، نقل هذه البريدات الإلكترونية أو الرسائل النصية أو بأي وسيلة من الوسائل، تنقل فيها ما تدرك وما لا تدرك! لا تخوض فيما لا يعنيك فينقص إيمانك وتدخل مع المنافقين.

ثم يقول الله بعد أن ذكر المنافقين قال: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} وهذا في مقابلة المنافقين.

"لما ذكر أن المنافقين بعضهم أولياء بعض ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والحمد لله.

ووصفهم بضدّ ما وصف به المنافقين، فقال: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ} أي: ذكورهم وإناثهم {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} في المحبة والموالاة، والانتماء والنصرة. فالمؤمنون يحبون بعض لأنهم يحبون الله، فأنت ترى مصليًّا في الطريق، أو ترى تاليًا للقرآن، أو تنظر للمسلمين في الحرم وهم يقرؤون، فتجد في قلبك ولاء لهم، حبّ من بعيد، تسمع عن طيبين نشروا الخير، تسمع عن أناس بذلوا أموالهم لنصرة الخير، تسمع عن مجاهدين في سبيل الله صدقوا في جهادهم، تسمع من تاريخ الأمة عن صادقين رفع الله شأنهم، فتجد في قلبك حبًا للبخاري لمسلم للترمذي، تجد في قلبك حبًا للمؤمنين سواء كانوا معاصرين أو من سبقوك، وتواليهم وتنتمي إليهم، وتنصرهم على الحق، من أهم صفاتهم أنهم يأمرون بالمعروف.

{يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} وهو: اسم جامع، لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة، هذا أول ما يعتنون به، ويتناصحون أن اعتقد في الله كذا، توكل على الله، ثِق بالله، ادعُ الله، ارجُ الله، هذه فتن هذه اختبارات الله يختبرك، فيأمر بعضهم بعضًا بالمعروف والمعروف أوله العقائد الحسنة. **والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة.**

ثم أنهم ليسوا مثل اليهود يأمرون غيرهم ولا يأمرون أنفسهم، **يقول الشيخ:**

وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، فهم يأمرون أنفسهم بالمعروف ويأمرون غيرهم.

{وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} وهو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة. وهذا من فضل الله أن بيّن لنا العقائد الباطلة والأعمال الخبيثة والأخلاق الرذيلة وأصبح المؤمنين ينهى بعضهم بعضًا عن هذا، فلا تأمرهم بالعوائد التي اعتادوا عليها الناس، إنما كل عادة من العادات اعرضها على الشريعة، فإن كانت لا تخالفها فلا بأس، لكن إن كانت تخالف الشريعة فلا تأمرهم بعوائدك وبما اعتدت عليه، فإن هذا حال أهل الإلف، إنما ائمرهم بما أمر الله.

إذًا صفتهم أنهم بعضهم أولياء بعض، ويأمرون بالمعروف، **{وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.**

{أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} أي: يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه. إنها أعظم نتيجة يتصف بها المؤمنين" إنها أعظم نتيجة يصل إليها المؤمنين إذا اتصفوا بهذه الصفات وتبرؤوا من الصفات التي مضت.

فكل من كان طامعًا في الرحمة فليوالِ المؤمنين، وليأمر بالمعروف، ولينه عن المنكر، وليطع الله، ويتبرأ من صفات المنافقين.

"**{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي: قوي قاهر، ومع قوته فهو حكيم، يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.** إذًا من عزّته–سبحانه وتعالى–وقوّته: أن يضع الأمور في مواضعها، ولا يستطيع أحد وهو العزيز أن يردّ رحمته عن هؤلاء المؤمنين الذين ائتمروا بأمره، كما أن الله–عزَّ وجلَّ– يضع الأمور في مواضعها.

ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ} وهذه الجنات العظيمة تكلم فيها الشيخ في كلام تفصيلي جميل، ملخصه: أن هؤلاء المؤمنين وعدهم الله وعد صدق وأنهم سيكونون في هذه الجنات في نعيم، وتسكن نفوسهم {ومساكن طيبة} تسكن نفوسهم فيها، فنسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن نكون من أهل جنات النعيم.

أنصحكم أن تقرؤوا كلامه الذي وصف فيه الجنة جزاه الله خيرا عنا وعن المسلمين.

اللقاء الحادي عشر

تفسير الآيات 83–93 من سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الحادي عشر من سلسلة اللقاءات لشهرٍ مباركٍ أنعم الله به على خلقه أسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يجعلنا من المقبولين فيه، فهذه هي غايتنا ومرادنا وأملنا أن نكون ممَّن نظر إليهم ربُّهم نظر الرضا، فقبلهم في هذه الأيام المباركة وأعتقهم من النار، اللهم آمين.

وفي خلال هذه المجالس المباركة كنَّا نودُّ أن يبقى **موضوع الإيمان هو موضوعنا الرئيس الذي به نعتني ونبذل جهودنا حوله لكي يزيد**، فإنَّ أعظم ما في المواسِم المباركة من المقاصد هو زيادة الإيمان، فاللَّهم اجعل هذا الشهر والأعمال التي فيه واجتماعنا سببٌ لزيادة الإيمان.

ومن أركان الإيمان التي نعتني بها الإيمان بالرُّسل، وقد مرَّ معنا الوقوف مع إبراهيم–عليه السلام–في مواقفه العظيمة التي ذكر الله–عزَّ وجلَّ–، ومرَّ معنا أيضًا الوقوف مع موسى–عليه السلام–، وامتثاله لأمر ربِّه، واليوم نقف مرَّة أخرى مع موسى–عليه السلام–ونرى أحداثًا تدلُّ على إيمانه، وكيف أمره الله أن يتعامل مع أحداث قد تتكرَّر على النَّاس فإذا تعلَّموا موقف الأنبياء، آمنوا بالأنبياء وعلِموا أنَّ ما أُرشد إليه الأنبياء أولًا هو نفسه ما نُرشَد إليه؛ لانتفعوا بما يقرؤون من قَصَص القرآن.

ولأنَّ السياق طويل بدأنا من جهة مقصدنا:

بسم الله الرحمن الرحيم

{فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (84) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89) ۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)}[1].

فالآيات التي في أواخر سورة يونس عرضت موقف موسى–عليه السلام–وفرعون وتجبُّره، وكيف أنَّ فرعون مع بيان الحقِّ له لكنَّه ردّ الحقَّ، وفي المقابل آمن لموسى كما قال الله–عزَّ وجلَّ–: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83)} يعني في أوائل دعوة موسى–عليه السلام–لم يؤمن لموسى–في وقت الخوف–إلا ذرِّية من قومه، وإيمان هذه الذرِّية كان على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم في دينهم. وكان وصف فرعون {وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} قال موسى لهذه الذُّرِّية التي ابتدأته بالإيمان: {يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا} **الإيمان يستلزم منكم التوكل** {إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ} **فإنَّ المؤمن يتوكل ويستسلِم لربّه إن كان حقًّا مُسلمًا مؤمنًا**، فكان ردّ هذه الذرية: {فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا} يدعون ربنا {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} وسنفهم كيف يكونون فتنة للقوم الظالمين، {وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} إذًا **توكلوا ودَعَوا ربَّهم**.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا} الله أمر موسى أن يتبوّأ بمصر بيوتًا، بيوت لمن؟ لبني اسرائيل المستضعفين؛ يعني أن يجعلوا لهم بيوتًا في مصر كما هم، ما يخرجون.

{وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} قبلة ماذا تفعلون بها؟ {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} وفي وسط هذه الأزمة الشديدة والخوف الشديد يُقال: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} بشِّر المؤمنين أنَّ امتثالكم للأمر وتوكلكم على الله ودعائكم كل هذا لن يخيب، لكن أهمّ أمر أن تمتثل أمر الله، وأن تكون ممن أطاع الله، واستجاب لأمر الله، ولم يخُن الله ورسوله.

(1) [سورة يونس: ٨٣ – ٩٣]

إذًا هم وُجِّهوا من قبل موسى–عليه السلام–{إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا}هم توكلوا {فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} والله أمر موسى أن يتبوأ لقومه بمصر بيوتًا ويجعلوا بيوتكم هذه قِبلة، وسنرى ما معنى القبلة. {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۖ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} بشِّرهم أنَّ لهم النَّصر إن امتثلوا الأمر.

وقال موسى بعدما أظهر لفرعون البيان التَّام، وكُلّ الذي كان يريده أن يخرج من مصر بقومه، لكن هم مِن جبروتهم ما كانوا يريدون أن يسمحوا له بالخروج، يعني لا آمن ولا تركهم يخرجون. فانظر لموقف موسى: {وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ} إنَّهم يستخدمون هذه الأموال، يستخدمون خَلاقَهُم–نصيبهم من الدنيا–في الضلال، يُضِلُّون أنفسهم ويُضِلُّون غيرهم.

{رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88)} يعني أن يبقوا في حال بسبب ما معهم من نصيب يُعَذَّبون عذابًا أليمًا، وهذا بسبب عدم استجابتهم لأمر الله، واستهانتهم بأمر الله، فهذا ليس احتراقًا على شأن النفس، إنما احتراقًا على طريق الله ليضلوا عن سبيله، فهذا بُغض من أجل الله.

{قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا} وهذا أمر مهم، استقم على الأمر ولا تستقم على الهوى، {فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} هذا يُوجَّه به موسى–عليه السلام–، ويُوجَّه به كل من يقود شأن الأُمَّة خصوصًا في الأزمات، استقم على أمر الله، لا تتبع سبيل الذي لا يعلَم؛ لأنَّ الذي لا يعلَم السُّنَّة ولا يعلم الحق يأخذه الحماس، والحماس يتطلَّب من الناس غالبًا الفوضى، الحماس غير المنضبط بالشرع غالبًا يأتي من ورائه الفوضى، فالله أمر موسى–عليه السلام–وأخيه أن يستقيمان ولا يتَّبِعان سبيل الذين لا يعلمون، امتثَلا الأمر فكان الجزاء {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ} خرجوا من تحت مُلكِه، تجاوزوا البحر نجَّاهم الله لما أَذِن لهم بذلك في الوقت الذي يعلم الله أنَّه وقت مناسب للخروج أخرجهم الله، **بعدما ظهر منهم التوكل وظهر منهم الدعاء وظهر منهم امتثال الأمر وظهر منهم الصبر واتخذوا بيوتهم قبلة وصلُّوا واستبشروا وانتظروا من الله الفرج كان في المقابل عطاء الله–عزَّ وجلَّ–أن أخرجهم** {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ}في هذا الاتباع كان اتباعهم من المؤكد أنَّه بغيًا وعدوًا، فكان يستحق الآن ما يأتيه {حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا

{الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}آمن الآن بعدما تحوَّل الغيب إلى شهادة، فكان الجواب: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} ما ينفعك الآن {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ} من أجل أي شيء؟ {لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} وسنرى ما معنى بقاؤه آية، وهل ما يتداوله الناس اليوم من أنَّ جثة فرعون في المتحف هل هذا حق أم باطل؟!

{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} أي عندما توكلوا وامتثلوا الأمر وبقوا في بيوتهم كما أمرهم الله واعتنوا بصلاتهم، والدعاء، واستقبلوا البشرى، وبشِّر المؤمنين، واستقام النبي موسى وهارون، استقاما ولم يتَّبِعان سبيل الذين لا يعلمون، كان الجزاء أنَّ الله-عزَّ وجلَّ-بوأهم مُبَوَّأ صدق ورزقهم من الطيبات، هل بقوا على هذه الحال؟

جاء الخبر هنا {فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} يعني بعد ما جاوز بهم البحر، وَوصلوا إلى الاستقرار، وأورثوا الأرض، وأصبح معهم ما معهم، حصل بينهم خلاف، لماذا؟! سيتبيَّن لنا.

متى حصل الخلاف؟ لما جاءهم العِلم، يقول الله-عزَّ وجلَّ-: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}.

نقرأ تفسير الشيخ السِّعدي على هذه الآيات، ونفهم كيف على المرء أن يكون في وقت الفتنة والشِّدَّة وتَسَلُّط العدُو عليه، كيف عندما يتسلَّط أحد مثل فرعون على المؤمنين ماذا يفعلون؟! وكيف يأتمرون؟!

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

{فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} وهذه الذرية آمنت على خوف من فرعون وملئهم.

"**أي: شباب من بني إسرائيل، صبروا على الخوف، لمَّا ثبت في قلوبهم الإيمان.** إذًا هؤلاء الذُّرية التي ابتدأت الإيمان من بني إسرائيل في وقت الأزمة كانوا شبابًا وثبت في قلوبهم الإيمان، لكنهم آمنوا {عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ} **عن دينهم.**

والسبب في خوفهم؟ {وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ} **أي: له القهر والغلبة فيها؛ فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته.** يعني الآن هم لا يلامون على خوفهم من البطش، إنما عليهم أن يفعلوا الأفعال التي تُرضي الله مع خوفهم، فخوف من شخص تسلط شعور طبيعي، لكن كيف تعامله؟ سيتبيَّن لنا في الآيات.

قال:

"**{و} خصوصًا {إِنَّهُ} كان {لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} أي: المتجاوزين للحد، في البغي والعدوان.** إذًا عالٍ في الأرض ومُسرِف له القهر ومُتجاوِز الحدّ في البغي والعدوان.

يعني ليس فقط له سُلطة وإنَّما صفته في التعامل مع هذه السُّلطة الإسراف.

قال الشيخ:

"**والحكمة-والله أعلم-بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب، أقبل للحق، وأسرع له انقيادًا،**-ففي أول الأمر ما آمن إلا هذه الذرية-**بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم-بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة-أبعد من الحق من غيرهم**".

ولذلك دائمًا نقول في وقت الأزمات: إذا وجدت أنَّ الكبار لا يقبلون الحق، فعليك أن تتوجه للصغار تربيهم كما ينبغي؛ ولهذا أشدّ فئة خطيرة على المجتمع إذا لم يُعتنَ بإيمانها هي الشباب، وبهذا تفهم لماذا هناك مُنظَّمات خاصَّة للأطفال والشباب، مُنظَّمات أصلها يهودي خاصة للشباب والأطفال، يدخلون بفِكرِهم وعبثهم لهؤلاء، فما الذي يجعلهم يهتمُّون بالشباب في العالم ويهتمون بالأطفال؟ معلوم لأنهم أقبل لكل فكرة، وإذا كانوا أقبل لكل فكرة، ولم يُبْنَ في نفسهم الإيمان، تخطَّفهم غيرهم.

ولهذا نحن نرى انبهار الشباب عندما يخرجون إلى الخارج، انبهارهم بالحضارات المختلفة دون معرفة حقيقة لهذه الحضارات!

قال:

"**{وَقَالَ مُوسَىٰ} موصيًا لقومه بالصبر، ومذكرًا لهم ما يستعينون به على ذلك**-يعني مطلوب منهم أن يصبروا في وقت الأزمة في وقت تسلط العدو ماذا يفعلون؟ يستعينون بأي شيء؟-**فقال: {يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ}** فالإيمان سيكون سبب للقيام بهذه الوظيفة.

فقوموا بوظيفة الإيمان. ما هي وظيفة الإيمان؟ **{فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ} أي: اعتمدوا عليه، والجؤوا إليه واستنصروه.** واستسلموا لقضائه وقدره.

{فَقَالُوا} ممتثلين لذلك {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} -إذًا أولًا ابتدؤوا في أن قالوا: على الله توكلنا، حصل منهم التوكُّل **{رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} أي: لا تسلطهم علينا، فيفتنونا**، لا تسلِّط القوم الظالمين.

فيفتنونا أو يغلبونا، فيفتتنون بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما غُلِبوا". إذًا هم يسألون الله أن لا يكونوا سببًا لفتنة القوم الظالمين، **كيف يكون المؤمن فتنة للقوم الظالمين؟**

الجواب: لو ابتلي المؤمنون وتسلَّط عليهم الكافرين ففتنوهم وغلبوهم، انهزموا، فيأتي الكافرين يقولون: لو كانوا على حق لما غُلبوا، إذًا الإسلام الذي يحملونه ليس حقًا. وهذا كما يحصل اليوم في أماكن كثيرة، أن يغلب أهلُ الكفر أهلَ الإسلام، فيفتن أهل الكفر فيقولوا: لو كان حقًا كان نصرهم الله.

فهم دعوا أن لا يكونوا فتنة للقوم الظالمين، بمعنى أن لا يتغلبوا عليهم فيقولون: لو كانوا على حق ما تغلَّبنا عليهم، فنسأل الله أن لا يجعلنا فتنة للقوم الظالمين.

قال:

{وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} يعني لا تفتنهم بنا ونجِّنا نحن منهم.

"لنسلم من شرّهم، ولنقيم على ديننا على وجه نتمكن به من إقامة شرائعه، وإظهاره من غير معارض، ولا منازع. إذًا يريدون أن ينجوا ليس من أجل الدنيا؛ نجِّنا بديننا، من أجل أن نُظهِر ديننا بلا معارض ولا منازع، وهم في هذه الحال:

{وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ} حين اشتدّ الأمر على قومهما، من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنتهم عن دينهم. يعني في الوقت الذي أراده الله، أوحى إليه هذا الوحي والأمر في غاية الشِّدَّة وكانوا حريصين على فتنتهم، أراد الله أن يبقوا هنا في مكانهم-في مكان الشدة-.

{أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا} أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتًا، يتمكنون به من الاستخفاء فيها.

{وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} أي: اجعلوها محلًا تُصلُّون فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس، والبِيَع العامة. كان هم من دينهم أن لابد أن يُصَلُّوا معًا، فجعلوا بيوتهم قبلة استثناءً أن تكون بيوتهم مكانًا لصلاتهم.

{وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} فإنها معونة على جميع الأمور.

{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} بالنصر والتأييد، وإظهار دينهم، فإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا، وحين اشتد الكرب، وضاق الأمر، فرجه الله ووسعه". وهذه هي الحقيقة، أن الله يختبر العباد عمومًا بتسلّط الأعداء عليهم، فإن فعلوا ما أمرهم الله، فإنَّ الله لابد أن يفرج عنهم كربهم.

- فهم آمنوا.
- وقاموا بوظيفة الإيمان ألا وهي التوكل.
- وقاموا بوظيفة الإيمان ألا وهي الدعاء.
- وقاموا بوظيفة الإيمان ألا وهي الصلاة.
- وكانوا مستبشرين مطمئنين لأمر الله.

فهذا يجعلنا نعلم أنَّ الصبر والتوكل على الله والدعاء والصلاة والاستبشار كلها من وظائف المؤمن لما يتسلط عليه العدو.

وإذا استبشروا، علِموا أنَّ مع العُسر يُسرًا، وأنَّه حينما يشتدّ الكرب، ويضيق الأمر، فالله-عزَّ وجلَّ-لابُدَّ أن يوسعه، إنَّما هذا اختبار، والدنيا دار ممرّ وليست دار مقرّ، وكلًا يُختبر بحسبه.

أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يقوي إيماننا وأن يجعلنا ممن يمتثل الأمر.

قال:

"فلما رأى موسى، القسوة والإعراض من فرعون وملئه، دعا عليهم وأمَّن هارون على دعائه. لما رأى القسوة والإعراض ماذا قال؟ **قال: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً} يتزينون بها من أنواع الحُلي والثياب، والبيوت المزخرفة، والمراكب الفاخرة، والخدام، {وَأَمْوَالًا} عظيمة {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا**

لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ} أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فيَضلون ويُضلون.

وهذا خلاقهم الذي استمتعوا به فيما يضرُّهم في شأنهم في دينهم ودنياهم، **{رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ} أي: أتلفها عليهم: إما بالهلاك، وإما بجعلها حجارة، غير منتفع بها.**

الطَّمس ذُكر في بعض ما ذكر من كلام السَّلف أنها تحوَّلت إلى حجارة وبقيَت بعدهم، وهذا مما قيل لكن لا يظهر عليه دليل واضح، على كل حال أتلفها عليهم أو اجعلها عليهم حجارة بأي نوع من التلف.

{وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ} أي: قسها {فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} لماذا دعا عليهم هذا الدعاء؟

- **قال ذلك، غضبًا عليهم، حيث تجرؤوا على محارم الله، وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله.** هذا الأمر الأول لما رآهم وصلوا بهذه الحال غضب لتجرُّئهم وإفسادهم وصدِّهم.
- وأيضًا لكمال معرفته بربه فإنه يعلم أنَّ من ردَّ الحق المرة الأولى والثانية والعاشرة وعامله الله بالحلم فلم يقبل، سيحول الله بينه وبين قلبه، **فقال: ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم".**

لماذا سيغلق عليهم باب الايمان؟

معلوم من سُنَّة الله أنَّ من لم يستجِب وكُرِّر عليه النِّداء وعُرِض عليه الأمر، فاشتدَّ منه العِناد، فلا يستحق أن يكون من أهل الإيمان؛ فدعا عليهم هذه الدعوة.

قال:

"{قَالَ} الله تعالى {قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا} هذا دليل على أن موسى، كان يدعو، وهارون يؤمِّن على دعائه،-ومن هنا استدل الشيخ-**وإن الذي يؤمِّن**-الذي يقول آمين-**، يكون شريكًا للداعي في ذلك الدعاء.**

{فَاسْتَقِيمَا} على دينكما، واستمرّا على دعوتكما، ولا تلتفتوا يمينًا ولا يسارًا وإنما عليكم الاهتمام بدعوة الناس ولا تفكروا في أي شيء آخر.

{وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} أي: لا تتبعان سبيل الجُهَّال الضُلَّال، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتبعين لطرق الجحيم،-في أثناء هذا-**فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلًا، وأخبره أنهم سيتبعونه**، أخبر الله موسى أن فرعون سيتبعه.

وأرسل فرعون في المدائن حاشرين يقولون: {إِنَّ هَؤُلَاءِ} أي: موسى وقومه: {لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56)}[1].

فيريد ماذا؟ أن يجتمعوا عليهم ويأتوا بهم، **فجمع جنوده، قاصيهم ودانيهم، فأتبعهم بجنوده**،-وهذا الإتباع كان-**بغيًا وعدوًا أي: خروجهم باغين على موسى وقومه، ومعتدين في الأرض، وإذا اشتد البغي، واستحكم الذنب، فانتظر العقوبة".**

وهذه سنَّة الله، لما أذِن الله لموسى بالخروج من مصر، وما خرج إلا لما أذِن له، كان الزمن الذي أراد الله فيه أن يهلك فرعون، فخرج فرعون بغيًا وعدوًا فنزلت عليه العقوبة.

قال:

"{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ} وذلك أن الله أوحى إلى موسى، لما وصل البحر، أن يضربه بعصاه، فضربه، فانفلق اثنى عشر طريقًا، وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين. وهذا من منتهى الضلال، فإنك تعلم يقينًا يا فرعون أنَّ موسى أتاك بالآيات وأنَّ آياته هي الحق، وأنَّه وقت ما ضرب البحر ستكون آية له، وهو الذي سينتفع بها ولن تنتفع أنت بها، لكن لترى كيف يُطمَس على قلب الإنسان؛ فلما يُكرِّر الإنسان على نفسه فكرة غير صحيحة ويعتقد بها فلما يأتي الوقت الذي يتبين تمامًا أن فكرته غير صحيحة، لا يستطيع أن يتصرف إلا بناء على ما كان يُفكِّر فيه أولًا.

وهذا يجعل الإنسان يفهم ما معنى حُسن وسوء الخاتمة

(1) [سورة الشعراء:54-56]

- فإنَّ من أحسن في تفكيره، وأصلح خواطره، ولم يكذب على نفسه، وكان يقول دائمًا الحق لنفسه ولغيره؛ سيأتي الوقت الذي يحتاج فيه هذا الصدق الذي كان يعيشه ويُعَيِّش نفسه به، فلما تأتي الازمات يتصرَّف في الأزمة على ما فهم وعَلِم من صدقه.
- أما عندما يكذب على نفسه، من أجل أن نتصوَّر الموقف هذا فرعون قال الله في حق كفره {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ}[1] جحدوا بها بألسنتهم، لكن استيقنت أنفسهم أنَّ موسى–عليه السلام–معه الحق، استيقنت أنفسهم أن موسى–عليه السلام–دعوته حق، واستيقنت أنفسهم أنَّ الذي مع موسى ليس سحرًا وإنها آية تخُصُّ موسى، كل هذا يقين في أنفسهم لكنهم بقوا يقولون بألسنتهم عكس هذا اليقين، بقوا يقولون بألسنتهم إنه ساحر كذاب، إنه يريد أن يخرجنا من ديارنا.

أتى فرعون المؤمن من آله وأطال المقام معه وخاطبه وبيَّن له، وهذا كله وهم يكذبون على أنفسهم وقد استيقنت أنفسهم أنَّ موسى معه الحق، فرعون استيقن هو وقومه أن موسى معه الحقّ.

الآن أصبحوا في موقف إما نجاة وإما هلاك، أولًا كان يُعرض عليهم الأمر، الآن إما نجاة وإما هلاك، أمامه البحر هو يعرف طبيعة البحر أنه لو دخل فيه سيغرق، رأى موسى الذي كان من أصل الأمر متيقِّن أنه نبي من عند الله وأنَّ معه الحق وأنَّه ليس ساحرًا وأنَّ معه آيات وأنَّ الله يعطيه آيات وينجِّيه... إلى آخر ما يتضمن اليقين بنبوته.

لما أتى الموقف الذي به الأمر يكون بين الحق والباطل، وبين الحياة والموت، هو يعرف الآن طبيعة الماء ويعرف ماذا سيحصل به إذا دخل ويعرف أن موسى نبي من عند الله وأنَّ معه آيات. الآن هل اليقين الذي في قلبه نفعه في تلك اللحظة؟ وهو طويل الكذب على نفسه، طول حياته يكذب على نفسه، هل هذا نفعه؟! الجواب: لا، لم ينفعه اليقين الذي في قلبه، في وقت الأزمة ما خرج منه إلا الكذب، في وقت الأزمة لم يُوفَّق لأن يقول الحق، ولا أن يتخذ قرارًا صحيحًا.

بكلام مختصر أنت تعلم أنه نبي يا فرعون، تعلم أن الله يؤيده، وتعلم طبيعة البحر، وتعلم أنَّ هذا سيكون خاص به، لماذا هذه الحقائق كلها غابت عنك لحظة ما دخلت البحر؟ السبب أنَّك عِشت على

(1) [سورة النمل: ١٤]

التكذيب ولأنك عشت على التكذيب لم توَفَّق، وإلا وأنت على الشاطىء رأيت آية من آيات الله العجيبة كان عندك فرصة أن تؤمن.

وهذا يدلّنا على أنَّ من أخطر المسالك التي يسلكها الإنسان مع نفسه هي الكذب على النفس، إنها من أخطر المسالك التي تهلك صاحبها وتودي به فتجعل الإنسان في نهاية الأمر لا يفرق بين الحق والباطل، ولا يدري هل هو يعتقد بقلبه أم هذا الكلام يقوله فقط بلسانه.

- **وصلنا إلى مقصدين مهمين من القصة:**

المقصد الأول: مسلك المؤمنين طاعة ربّ العالمين، وربّ العالمين–سبحانه وتعالى–يربّي العباد بإرسال الأنبياء والرسل، والأنبياء والرسل يصفون للأمم كيف يعيشون وقت الأزمات، كيف يعيشون وقت الفتن، كيف يعيشون وقتما يتسلط عليهم عدو. هنا نموذج موسى–عليه السلام–مع قومه، هذا النموذج عُرِض علينا من أجل أن نعايشه ونفهمه، ولا نقل: "هذا يخصّه" إنما كل ما عرض في القرآن من القصص والأخبار التي أتتك عن من قبلك خصوصًا عن الأنبياء والمرسلين، يقال لك: اعتقد فيها واعلم أنَّ ما أخبرت به عنهم يراد منك أنت أيضًا؛ يراد أن تعتقده فيهم ويراد أن تعيشه وتسلكه إن كنت في حالة تشبه حالهم.

وسنجد أنَّ هذا الذي عاشه موسى–عليه السلام–هو نفسه الذي أمرنا به النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–في الفتن، أنت مؤمن تثق بالله تعلم أنَّ أمر الله هو الحق والصواب، وأنَّ ماجاء به الأنبياء هو الصدق، توكل على الله، امتثل أمر الله، اصبر، إذا تسلَّط عليك العدو، احبس نفسك عن أي انفعال، توكل على الله إن كنت مسلمًا مؤمنًا، ادعُ الله، استغِث إن كنت مؤمنًا أنه رب السماء والأرض وأنَّ بيده مقاليد كل شيء؛ لا تظن أن هذه سلبية، هذه قوة إيمان. ألم يكن النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–وهو في حال الضعف في الغار ويقول له أبو بكر–رضي الله عنه–وأرضاه: لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا، ماذا قال له؟ قال له: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}[1] إنَّه الإيمان، اليقين أن ربنا الذي في السماء الذي يملك الملك، ويدبِّر الشأن هو الأول الذي يُسبِّب الأسباب، وهو الآخر الذي يعطي نتائج هذه الأسباب، فما بالك تغتر بالأسباب أو تظنها توصلك إذا خالفت أمر الله؟

(1) [سورة التوبة: ٤٠]

إذًا:

- **اصبر**
- **توكل**
- **ادعُ**
- **استغِث**

لأنَّ هذا دليل الإيمان، أقِم الصلاة، اعتنِ بالصلاة، اعتنِ بدينك، وأبشر.

لا يدخل إلى قلبك اليأس وكن حذرًا، استقم على هذا وكن حذرًا من أن تتبع سبيل المتحمسين، سبيل المفتنونين، سبيل الذين سماهم الله "الذين لا يعلمون"؛ لا يعرفون ربهم، لا يعرفون دينهم، لا يعرفون سنَّة الله في الأرض، لا يعرفون أنَّ الملك ملكه، وأنَّ الأمر أمره، ما يعرفون هذا كله! فهؤلاء الذين لا يعلمون يغرون الذين يعلمون ويغرون أنصاف المتعلمين؛ الذين يجدون حماسة ويجدون مواقف ويجدون أحداث ربما تُدخل لهم الأمل أنهم سينتصرون، وأنهم سيحصل لهم ما يريدون، وهم في هذا كله لا يمتثلون أمر الله!.

استقيم ولا تتبع سبيل الذين لا يعلمون، ولابد أن تُختبر، لو صدَّقت بما أخبر به النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، ستسير وأنت هادئ، وإذا اجتمع الناس على خلاف ما معك ستقول: أنا سأستقيم على أمر الله ولا أتبع سبيل الذين لا يعلمون، أنا أعلم ماذا أُمِرت وأنتم لا تعلمون، فحتى لو كنتم كثرة، فالكثرة لا شيء في مقابل أمر الله. فتعلَّم من النبي الذي تؤمن به، نبيك-صلَّى الله عليه وسلَّم-وموسى-صلَّى الله عليه وسلَّم-، تعلَّم منهم كيف تسير إلى الله خصوصًا في زمن الفتنة، هذا الدرس الأول الذي تعلمناه من بداية القصة.

المقصد الثاني الذي تعلمناه: أن الإنسان إذا عاش يكذب على نفسه، عاش يغرُّها بمفاهيم ولا يفتِّش في داخله عن الحقائق، ستأتي اللحظة الحاسمة في حياته فيموت على ما عاش عليه. كذاب طوال حياته لا يتحقق ولا يفتش في إيمانه وتصديقه لا يفتش في إخلاصه لا يفتش في صدقه، **النتيجة** أنه يموت على ما عاش عليه، يكون غاشًا لنفسه غير باحث عن إيمانه، غير مفتِّش ليقينه وتصديقه فيموت وهو على الحال التي عاش عليها-نعوذ بالله من الخذلان-.

نأتي إلى الدرس الأخير في هذا المقطع يقول الله-عزَّ وجلَّ-: "**{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ}وذلك أنَّ الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر، أن يضربه بعصاه، فضربه، فانفلق اثنى عشر طريقًا، وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين. فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر، وفرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون.** وهذا من تمام البشرى أنهم بعينهم سيرون هلاك فرعون.

حتى إذا أدرك فرعون الغرق، وجزم بهلاكه-جزم بهلاك نفسه- **{قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ} وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو {وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} أي: المنقادين لدين الله، ولما جاء به موسى**-يعني استسلمت حصل منه الاستسلام الآن-.

قال الله تعالى-مبيّنًا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له-: وهذا ما تدور عليه سورة يونس، **سورة يونس تدور حول هذا المقصد أن هناك زمن للإيمان ينفع وزمن للإيمان الذي لا ينفع**، فكان نموذج زمن الايمان الذي لا ينفع هو فرعون، ونموذج زمن الإيمان الذي ينفع هو قوم يونس آمنوا في زمن ينفع معه الايمان، المقصد يقول الله-عزَّ وجلَّ-: **{آلْآنَ} تؤمن، وتقر برسول الله {وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ}** لأن في كلامه اعتراف بالله واعتراف برسول بني اسرائيل.

أي: بارزت بالمعاصي، والكفر والتكذيب {وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله، أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية" يعني حلم الله يشمل الخلق جميعًا إلى أن يصلوا إلى الحالة الاضطرارية أنهم لا ينفعهم ايمانهم، إذًا هذه سنَّة الله، فأنت يجب عليك أن تعرف سنَّة الله ولا تضع رحمتك في غير مكانها.

الله يحكي لك في القرآن كيف عاملهم وكيف تركهم، وكيف تسلطوا وتجبروا، فلا تأس عليهم وقتما تأتيهم العقوبة التي يستحقونها.

إذًا سنَّة الله أنه لاينفعهم إيمانهم إذا كان اضطراريًّا؛ لأن إيمانهم صار إيمانًا مشاهدًا؛ لأنه رأى الموت بعينه فأصبح كأنه إيمان بالمشاهَد وليس بالغيب، كإيمان من ورد القيامة، إيمانه هنا كإيمان من هو في عرصات يوم القيامة وقال أنا الآن آمنت بربنا، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب.

لو نظرنا إلى مسألة الصلاة مثلًا: وأنت في الصلاة إذا كنت مؤمنًا أنك تقف بين يدي الله إيمانًا بالغيب، **فتُحسن صلاتك وتجمع قلبك** وتُركِّز فيما تقوله لربك وفيما يردُّه عليك ربك العظيم، فيقول لك: (أثنى علي عبدي، مجَّدني عبدي)، إذا أحسنت في هذا الوقوف الذي فيه غيب، **سيُحسَن إليك في الوقوف الذي فيه شهادة**، فلمَّا تقف بين يدي الله في ذاك الموقف العظيم، يُحسَن إليك ويكون موقفك موقفًا مشرِّفًا، فمن آمن بالغيب هنا-يعني وقف كأنَّه يرى الله-نفعه إيمانه بالغيب عندما يصبح هذا الغيب شهادة، آمنَّا بك يارب العالمين.

قال:

"قال الله-عزَّ وجلَّ-: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً}

قال المفسرون: إنّ بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه، وشكوا في ذلك، فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه،-يعني على هضبة مرتفعه-**ليكون لهم عبرة وآية".**

وهذا والله أعلم هو الحق وأنَّه لم يبقَ بعد ذلك، وأنَّ ما يدّعونه أنَّه هنا في المتاحف، في المتحف البريطاني جثة له، فهذا ليس له دليل ولا سند ولا تقبل في مثل هذه الأمور أشياء بدون دليل ولا تنشرها.

"{وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} فلذلك تمر عليهم وتتكرر فلا ينتفعون بها، لعدم إقبالهم عليها.

الله-عزَّ وجلَّ-يظهر لهم الآيات لكنهم لا ينتفعون بها؛ والسبب أنهم لا يُقبِلون عليها إقبال من يريد أن يتفكَّر فيها.

وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل". وهذا حق، تعلَّم عن الله وتعلَّم عن ما أخبرت به الرسل؛ ستراه بعينك في كل موقف وفي كل مشهد لكن الجاهل ما يعرف يفسّر ماذا يحصل حوله.

قال:

"{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم.

{وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} من المطاعم والمشارب وغيرهما.

الدرس الثالث الذي نريد أن نخرج به من هذه الآيات:

{فَمَا اخْتَلَفُوا} في الحق {حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} العلم موجب لأي شيء؟ يقول الشيخ: **الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، يعني العلم يوجب أن نجتمع**، يعني لو كنت مثل هذا الاجتماع المبارك، ناس من شرق الأرض، ناس من غربها، ناس من شمالها، ناس من جنوبها، قارات مختلفة كلنا اجتمعنا على أن نتعلَّم كلام الله، وعرفنا من هو الله العظيم وعظَّمناه، وأصبح هو العظيم عندنا ولا نعظِّم غيره، ونعظِّم رسوله لأنه أمرنا بتعظيمه، ونعظِّم أمر الرسول، **ونتواصى جميعًا**:

{أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}[1]

{اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}[2]

{لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}[3]

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}[4]

أصبحنا نشترك جميعًا في أننا نخاف الله ونعظِّم الله ونعظِّم أمر الرسول، فما أن يصح عندي وعندك حديث فيه أمر عن الله أمرنا به رسول الله إلا نمتثله مباشرة، قد نختلف فقط في فهم نفس النص، لكن نجتمع في كوننا أنَّ الدليل هو قائدنا، فالاختلافات بسيطة. لكن في الأصل لو اجتمعنا جميعًا في خيمة واحدة في الحج مثلًا–أسأل الله من فضله أن يبلغنا حجًا مقبولًا–لو اجتمعنا نجد أنفسنا متفقين لأننا جميعًا نعظِّم الله ونريد رضاه وقلوبنا معلَّقة بمن في السماء ونطلب ثناه.

(1) [سورة النساء: ٥٩]
(2) [سورة الأنفال: ٢٤]
(3) [سورة الأنفال: ٢٧]
(4) [سورة الأنفال: ٦٩]

كيف يأتي العلم فيفرّق الناس؟ لا يمكن أن يكون علمًا صحيحًا يفرق الناس، لكن هنا حتى جاءهم العلم حصل التفرُّق! نقول: نعم، هناك عامل آخر دخل عليهم، يقول الشيخ:

- **ولكن بغى بعضهم على بعض** (البغي)
- **وصار لكثير منهم أهوية** (الهوى)
- **وأغراض تخالف الحق**

فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير.

يريد ينتصر لرأيه، يريد أن يكون هو الزعيم على الخلق، يريد أن تكون القيادة له، أهواء كثيرة تتخطف بالناس، فتراه مع وجود الحقّ لكنه ما يبحث فيه، وإذا قلت له تعال إلى سنة الرسول–صلَّى الله عليه وسلَّم–وقل لي كيف تفهم هذا النص وكيف فهمه الأوائل؟ يهاجمني، يقول: أنت أصلًا على فِكر كذا وكذا، أنت وهَّابي، أنت ممن أفرزته كذا وكذا من الجماعات، فلا يناقشني في الحقِّ وإنما يناقشني في نسبتي التي هو يظن أنني منسوبة إليه، فإنك تسمع قارئ القرآن يقرأ في سورة النساء مرتين في كتاب الله {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ}[1] ثم لا يحرِّك ساكنًا في الإنكار على الشرك، ماذا تستفيد من بقاء الشرك في العالم الإسلامي؟ ماذا تستفيد من بقاء الأضرحة في كل مكان؟ ماذا تستفيد من تبرُّك الناس بالموتى؟ عندما تقول له ذلك يقول لك: "دوشتونا بالكلام عن التوحيد والشرك"، الناس الآن يحتاجون شيئًا فوق التوحيد! سبحان الله! وهل هناك شيء فوق التوحيد؟!! لو وحَّدوا واستقاموا على أمر الله، كشف الله عنهم ما بهم.

المشكلة عدم فهم النتائج والأسباب، نحن في النتائج الآن، نحن نذوق في العالم الإسلامي نتائج عدم توحيد الله وعدم تعظيم الله!

عندما يظهر شخص ليس له هوية يتعدَّى على دين الله هنا وهنا وفي كل مكان، تدفع ثمن ماذا الآن؟ أنت تدفع ثمن عدم تعظيم الله، هؤلاء لم يعظِّموا الله لأنك أنت الذي تُعَلِّم كان لك أهوية، فما نشرت التوحيد، ما نشرت عظمة الله! إنّهم يتجرؤون على الله تجرُّءًا يُعجِز النفس عن أن ترد على هذه الجرأة.

(1) [سورة النساء: ٤٨]

ما لنا إلا أن نقول: يا ربّ لا تؤاخذنا بما يقول السفهاء! وإنَّهم ليسوا منَّا، إنَّا بريؤون ممن يتعدّى على الله وعلى رسوله، غرَّتهم دنياهم، إنهم يعيشون الآلام في نفوسهم والغربة لكنهم لا يعرفون أنَّ هذه الآلام والغربة سببها عدم طاعة الله، يعيشون نتائج ما يعرفون أسبابها.

أنت يا واعي، يا من معك العِلْم عليك أن تعرف السبب.

إذًا ما حصل الاختلاف إلا بسبب البغي والأهوية وأغراض تخالف الحق فحصل بينهم من الاختلاف الشيء الكثير.

قال:

{إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} بحكمه العدل الناشئ عن علمه التام، وقدرته الشاملة، وهذا هو الداء، الذي يعرض لأهل الدين الصحيح.

وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم بعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين اللعين.

وإلا فإذا كان ربهم واحدًا، ورسولهم واحدًا، ودينهم واحدًا، ومصالحهم العامة متفقة، فلأي شيء يختلفون اختلافًا يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت، ويموت من دينهم، بسبب ذلك ما يموت؟.

فنسألك اللهم، لطفًا بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام".

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللقاء الثاني عشر

تفسير الآيات 36- 49 من سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثاني عشر من سلسلة اللقاءات الرمضانية المباركة لعام 1434. أسأل الله أن يجعله لقاءً مباركًا وأن يتقبَّلنا، وهو-سبحانه وتعالى-يتقبَّل من المتَّقين.

وقد كان هذا المقصد-وهو التقوى-التي هي سببٌ للقبول مقصودٌ للصيام، ومقصودٌ للعبادات على وجه العموم، فاللَّهم اجعلنا من المتَّقين الذين تقبلهم وتنفعهم بتقواهم يوم الدين، اللَّهم آمين.

لقاؤنا اليوم إن شاء الله سيكون في آيات مباركات في سورة هود، فيها قصَّة عظيمة من قصص الأنبياء الذين نؤمن أنَّنا سنجتمع معهم شهودًا على أُممِهم أنَّ هؤلاء الأنبياء بلَّغوا الرسالة.

سيكون لقاؤنا مع آيات **تصف حال نوح-عليه السلام-**، وهو أول الأنبياء والرسل الذين حاربوا الشرك، وقد كان الناس من آدم إلى قوم نوح على التوحيد، إلى أن ظهر في قوم نوح الحال المعروفة من دخول الشِّرك على الناس بتعظيم الأولياء، فلا زال الأولياء من الزمن الأوَّل إذا لم يُتعامل معهم كما أمرت الشريعة، لا زالوا هم فتنة الناس، إذا لم يَسِر الناس على ما يُرضي الله في التعامل مع هؤلاء الأولياء، فدخل الشِّرك إلى قوم نوح من جهة تعظيم الأولياء تعظيمًا لا يقبله الشرع.

وقع الشِّرك، أرسل الله نوحًا إلى قومه يخبرهم وهم يجادلونه، فيقول الله-عزَّ وجلَّ-في أول ذكر القصة:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (25) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26)} إذًا يأمرهم بالتوحيد، وينذرهم بالِلقاء، وَحِّد الله واعلم أنَّك ستلقى الله.

{فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ} بأي عذر اعتذروا في ردِّ الرسالة؟ {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ} .

إذًا هذه أعذارهم:

الوجه الأول: أنَّهم يقولون أنَّك مثلنا بشر، فعلى أي شيء نتبعك؟ طعنهم في نبوَّته يقولون: نحن وأنت مشتركين في البشرية فأيّ ميزة لك.

الوجه الثاني: انظر إلى أتباعك ما نراهم إلا هم أراذلنا، يعني لا يتَّبعك أهل الملأ أو الملأ الأشراف. {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} ؛ لم يتَّبعك أحد من الأشراف، فليس لك ميزة علينا، هؤلاء الأراذل يتَّبعونك لا قيمة لك ولا لهم، واتباعهم لك كان أصلًا {بَادِيَ الرَّأْيِ} يعني من غير تعمق ولا تفكير.

الوجه الثالث: {وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ} لا بالمال ولا بالشَّرف ولا بالجاه.

يعني أنت مثلنا بشر، وأتباعك أراذلنا، وأنتم معًا-أنت وأتباعك-ما نرى لكم علينا من فضل، لا أنت ولا أتباعك.

انتهوا من هذه الثلاثة انتقلوا إلى **ظنونهم الرابعة** {بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} فيما تدَّعونه.

ردَّ عليهم نوح-عليه السلام-ردًا إجماليًا فقال لهم: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ} بمعنى أنَّكم لم تتفكَّروا بقلوبكم فكأنَّكم في حال عمى، خُفيَت عليكم، فهي ليست خفيَّة وإنما أنتم عَميتم عنها، {أَنُلْزِمُكُمُوهَا} أي لا يمكنني أن أضطركم للمعرفة بها {وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}، فالحق بيّن واضح، لكن الناس أمامه في حال عمى؛ ولذلك لو عُدْنا في سورة هود للآية السابقة مباشرة من بداية قصة نوح، نظرنا آية (24) في سورة هود سنسمع قوله تعالى:

{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ}-هذا الفريق الأول- {وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} إذًا هناك عمى وصمم في قوم، وهناك قوم بصيرين. فآية 24 سيتبين لنا مباشرة أنَّ الله-عزَّ وجلَّ-مثَّل للفريقين، ضرب مَثَل هل في عقلكم يستوي من كان أعمى بمن هو بصير ومن كان أصمًا بمن هو سميع؟ الجواب: لا.

لذلك ترى حال هؤلاء، عُمِّيَت عليهم الأنباء، فلا يمكن أن يُلزموهم بشيء، فيقول لهم نوح عليه السلام: {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا} يعني أنَّه صرَّح أنَّه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالًا حتى لا يكون بذلك محلا للتهمة.

{إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ} **وهذا الذي يجب أن يكون مَسْلَك الدُّعاة إلى الله**؛ ألَّا يكونوا طالبين للدنيا، ويكونون في محل بعيد عن التهمة، يبذلون جهودهم ألا تكون أطماعهم حول أموال الناس، لا يشعر الناس من أهل الدعوة أنَّهم فقط يريدون أموالًا يستفيدون منها.

ولابد أن نعرف يقينًا أنَّ الدعوة تقوم على الصدق، فإذا صَدَقت، سيرزق الله-عزَّ وجلَّ-أهل الدعوة الأموال التي تعينهم على قيام أعمالهم ومشاريعهم، فالدعوة تحتاج إلى مال، لكن أنت تصِل إلى المال الذي تحتاجه الدعوة من باب الله وليس من باب الناس، فاسأل الله والله يرزقك.

والمقصد أنَّ الداعي لا يسأل الناس أموالهم؛ لأن سؤال الناس أموالهم أدعى لتهمة من يدعو إلى الله، ويكون في ذلك مجال لكل أحد أن يدَّعي أنَّ هؤلاء يطلبون الدنيا.

إذًا هذا الأمر الأول المهم الذي يُشكِل علينا، فإنَّنا نقرأ في سورة الحديد ما يدلّ على أنَّ القرض الحَسَن وعلى أن الإنفاق سببٌ من الأسباب العظيمة التي جعلها الله لإقامة الدِّين، وهنا نسمع أن نوح-عليه السلام-يقول: {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ} إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ والمعنى واضح: المال مال الله، وأنت تأمر النَّاس أن يستعينوا بمالهم من أجل أن يصلوا إلى الله، وينفقوا مالهم في دروب الخير، وليس شرطًا أن يكون درب الخير هو أنت، فكل درب للخير دلَّ عليه ولك من الله أجر أن تدلّ عليه، والله ناصر دينه بنا وبغيرنا، والله ناصر دينه بمال المنفق وبغير ماله.

الأمر الثاني قال لهم: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ} فالأمر الثاني ردًا على كلامهم لما قالوا له: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ} لمَّح لهم هنا بيَّن لهم أنه لا يمكن أن يطردهم؛ وعلَّل ذلك بأن هؤلاء ملاقوا ربهم، والمعنى أنَّهم سيلقَون ربَّهم فهو يجازيهم على إيمانهم؛ لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عند الله، وهذا كأنَّه فيه إعظام لهم إعظامًا لشأنهم، وخوفًا من مخاصمتهم. مَن اعتبروهم أراذل يُخاصمون النبي عند ربِّهم بسبب طرده لهم، في آخر هذه الآية بيَّن لهم أنَّ طلباتهم هذه إنَّما هي لأنَّهم جاهلون {وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ}.

استرذال الناس والسؤال أن يطردهم هذا ما يأتي إلا من الجهل؛ فلذلك أن تدعو الناس وتعلم أنَّ الذين يَتَّبعون الدعوة هم من انشرح صدرهم للإيمان، وليس لك علاقة بأحوالهم، فلا تكن ذا حرص على الوجهاء، إنما ذا حرص أن يصل العِلم لكل أحد، والله-عزَّ وجلَّ-يشرح صدور الخلق.

{وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ} لأنَّهم قالوا له: {وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ} ، فردّ عليهم فقال: {وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} إنَّما مثل ما أخبرهم من بداية الأمر أنه نذير مبين.

{وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا} إذًا مرة أخرى الكلام حول مَن يحتقرونهم والذين جعلوهم بينهم وبين الإيمان، يقول لهم: لن أقول لكم أن هؤلاء لن يؤتيهم الله خيرًا، أي لن يوفّقهم أو يهديهم، بل قد آتاهم الله خيرًا بالإيمان، الله أعلم بما في أنفسهم من الإيمان والإخلاص فهو سيجازيهم على ذلك {إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ}.

الآن المفترض أن يجيبوه على فهمهم الذي فهموه، يناقشونه فيما سمعوه، لكنهم انتقلوا لما عجزوا عن القيام بالحجة وانقطعت المناظرة قالوا: {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} أي ائتنا من العذاب الذي تخوّفنا به إن كنت من الصادقين، وهذه دائمًا حال الناس الذين بغضوا الدين، يقولون: أنتم كل يوم تقولون: "سيقع العذاب على الكافرين، ستقع العقوبة على الظالمين وسيمحق الله أموال المرابين ولا نرى ما تقولون. هاتوا العذاب الذي تقولون إن كنتم صادقين".

الجواب: {قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ} إذا قضت حكمة الله تعجيله عجَّله لكم، وإذا قضت حكمة الله تأخيره أخَّره.

{وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} أنتم لن تفوتوا الله لا هنا ولا هناك، لكن حين تُعرِضوا عن طريق الله لن ينفعكم نصحي {وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ} نصحي لن ينفعكم إذا أنتم أخذتم طريق الغواية، فضللتم الطريق وزُغتم؛ وما دام أنَّكم زغتم عن الطريق كان جزاؤكم أن يزيغ الله قلوبكم ويخذلكم عن طريق الحق، {هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} فيجازيكم.

وهم يفترون عليه ويقولون أنَّه افتراه وأنَّه يكذب، فقال لهم: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ} إن افتريته فعليَّ إجرامي، أنا أكتسب الذنب وأنا بريء مما تُجرمون، وهذه دائمًا مواقف البراءة واضحة في سلوك الأنبياء بعد الدعوة وتكرارها.

نبدأ بمقصدنا وهو الجزء الذي في قصة نوح كان فيه بيان النَّجاة، وكيف تكون، وكيف موقف الناس من طريق النجاة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (39) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)}[1].

قال الله-عزَّ وجلَّ-: {وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (37)} إذًا هذه أوامر من الله-عزَّ وجلَّ-، أوحى الله-عزَّ وجلَّ-إلى نوح هذه الأوامر.

(1) [سورة هود: ٣٦-٤٩]

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

"{وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ} **أي: قد قسوا**، أي بلغوا حال رفضوا فيه الدعوة وهذا من عِلمِه-سبحانه وتعالى-بأحوالهم، وأنَّهم زاغوا زيغًا أصرُّوا فيه على كفرهم، وأنَّهم مُصمِّمين على ذلك.

{فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} أي: فلا تحزن، ولا تبال بهم، وبأفعالهم، فإن الله قد مقتهم، وأحقَّ عليهم عذابه الذي لا يُرَد. وما مقتهم الله إلا بعد أن مقتوا أنفسهم هُم فردُّوا أنفسهم عن الصراط المستقيم.

قال الله له: **{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} أي: بحفظنا، ومرأى منَّا، وعلى مرضاتنا، {وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا} أي: لا تراجعني في إهلاكهم، {إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ} أي: قد حق عليهم القول، ونفذ فيهم القدر.**

فامتثل أمر ربه، وجعل يصنع الفلك {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ} ورأوا ما يصنع -ماذا يفعلون؟- **{سَخِرُوا مِنْهُ}** -قال نوح-: **{قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا} الآن {فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} نحن أم أنتم. وقد علموا ذلك، حين حلَّ بهم العقاب".**

- إذًا هذه مرحلة من المراحل التي مرَّ بها الأنبياء، ويمرّ بها الدُّعاة إلى الله الصادقين في الدعوة على منهج الأنبياء، إذا خاطبتهم بالحقائق وبيَّنتها لهم، فإنَّهم يستهزؤون ويرَوْنَ أنَّ ما تقوله لا يمكن أن يكون، ويجدوك تُتابِع السُّنَّة وتفعل ما أُمِرت به فبِك يستهزؤون ويسخرون. ونحن في قلوبنا نعتقد أن **السُّخرية** هذه إنما أتت من **الجهل**، فإذا كنتم تُظهِرون جهلكم الآن بهذه السُّخرية فإنَّ الزمن القادم سيُبيِّن لكم أنَّ ما سخرتم منه هو **الحق** في وقتٍ لا ينفع فيه الندم، {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} سوف تعلمون يقينًا. فعلى هذا نفهم أنَّ هناك أحوالًا كثيرة يمُرُّ بها المستقيمين على السُّنَّة الثابتين عليها مُنتظرين عطاء الله وفرجه، فيجدون من يلومهم ويَسْخَر بهم ويُسمِّيهم أسماءً سيئة ويدَّعي عليهم ادِّعاءاتًا باطلة، ويُكثر عليهم في الاستهزاء والسُّخرية بكل الوسائل التي يستطيعها، وهذا أمر مَرَّ على الأنبياء فلا تبتئس ولا يكُن في قلبك شك، واعلم أن الله-عزَّ وجلَّ-ناصر دينه **فاستقِم** ولا تتبع سبيل القوم الذين لا يعلمون.

- لا يستفزَّك الاستهزاء.
- تابِع.
- اصمت وقتما أُمِرت أن تصمت.
- أخمد ذكرك وقتما أُمِرت أن تخمد ذكرك.
- انقطع عن أحداثهم وأحوالهم وقتما تكون فتنة.
- اعبد الله لأنَّ عبادة في الهرج كهجرة إليه.
- وعندما يأتون يقولون: أنت سلبي، أنت بعيد، أنت مُنقطِع، هذا دينكم يأمركم بأن تنقطعوا عن الناس وأن لا يكون لك ثقافة، إنهم يسخرون فاتركهم.

يقول الله-عزَّ وجلَّ-:

"{حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا} أي: قدَّرنا بوقت نزول العذاب بهم {وَفَارَ التَّنُّورُ} أي: أنزل الله السَّماء بالماء بالمُنهمِر، وفجَّر الأرض كلها عيونًا حتى التنانير التي هي محل النار في العادة، وأبعد ما يكون عن الماء، تفجرَّت فالتقى الماء على أمر قد قُدر".

فإذًا كيف كانت حالهم؟ نزل عليهم من السماء-كما في سورة القمر-ماء منهمر، وتفجرت الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قُدر.

وذُكِر التنُّور هنا لأنَّ من يبني التنُّور عادةً يكون في حرص أن يضعه بعيدًا عن ينابيع الماء؛ من أجل أن يشتعل بالنار التي هي ضدّ الماء، چ چ چ چ دليل على أنَّ الأرض تفجرت ينابيعًا.

"{قُلْنَا} لنوح: {احْمِلْ فِيهَا}-يعني في السفينة-{مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} أي: من كلِّ صنف من أصناف المخلوقات، ذكر وأنثى، لتبقى مادة سائر الأجناس، وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين، فلأنَّ السفينة لا تطيق حملها {وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ} ممن كان كافرا، كابنه الذي غرق.

إذًا معنى ذلك أنَّه ترك ما يزيد عن الزوجَين وحمل معه أهله، من بنيه ونسائهم إلَّا من سبق عليه القول ممَّن كفر. وسيتبيَّن لنا الآن حال ابنه الذي كفر.

{وَمَنْ آمَنَ} {و} الحال {آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}

{وَقَالَ} نوح لمن أمره الله أن يحملهم:-قال لهم-**{ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} أي: تجري على اسم الله، وترسو على اسم الله، وتجري بتسخيره وأمره.**

وهم على يقين برهم، {بِسْمِ اللَّهِ} هذا الاسم العظيم الذي إذا ذُكر على شيء بورك، فاركبوا مُسمّين الله، قائلين بسم الله، مُنتظرين أثر هذا الاسم على أنفسكم وعلى دابتكم-سفينتكم-التي تركبونها، بسم الله تجري وترسو، وفي حفظ الله-عزَّ وجلَّ-تكون، **فحين تركبون وتجرون وترسون فأنتم مؤمنين أن الله-عزَّ وجلَّ-هو الذي يحفظكم.**

{إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} حيث غفر لنا ورحمنا، ونجَّانا من القوم الظالمين. فاللهم اغفر لنا وارحمنا ونجنا من القوم الظالمين، آمين.

ثم وصف جريانها كأنا نشاهدها فقال: {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ} أي: بنوح، ومن ركب معه {فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ} هذا من عظمة الموج، شُبِّه بالجبال المرتفعة؛ كأنَّ كل موجة من هذه الموجات كالجبل في تراكمها وارتفاعها وعظمتها، في هذا الوقت.

والله حافظها وحافظ أهلها وهي تجري في موج كالجبال، وهم سمُّوا الله لما ركبوها، فكان حِفْظَ الله لهم مع عَظَمَة ما حولهم من أحداث، وفي وسط هذه الأحداث العظيمة وانقلاب الأرض، ماء من السَّماء منهمر، وينابيع تتفجَّر في الأرض، كان موقف ابن نوح الذي كفر {وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ}.

{وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ} لما ركب، ليركب معه-في السفينة-**{وَكَانَ} ابنه {فِي مَعْزِلٍ} عنهم، حين ركبوا،**-يعني في معزل مبتعد عنهم-**مبتعدًا وأراد منه، أن يقرب ليركب،**-في مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته، لما قال نوح: اركبوا فيها، هو كان بعيدًا، إما بعيدًا معنويًا أو بعيدًا حسيًا، فناداه هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، قال له: {يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ} لأن من ركب مع نوح سيكون من المؤمنين، ومن لم يركب يكون مع الكافرين، وليس مهم الغرق المهم ألا تكون مع الكافرين.

ف {قَالَ} ابنه، مكذبًا لأبيه: أنَّه لا ينجو إلا من ركب معه السفينة.

يُكذِّب هذا القول، أي أنَّ الابن الآن يُكذِّب نوحًا-عليه السلام-في قوله أنَّ النَّجاة ستكون لمن ركب السفينة؛ لأنه في أول الأمر يقول له مع من قال: اركبوا فيها وستنجون، لكنه كذَّب هذا، ولو كان تحقَّق الغرق كان ركب طلبًا للنجاة، لكن هذا في أول الأمر قبل أن يتحقَّق الناس أنهم يغرقون.

ماذا أجاب؟ قال: **{سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ } أي: سأرتقي جبلا، أمتنع به من الماء،** أي سأرتقي وأعتصم جبلًا أمتنع به من الماء، فهو يتصوَّر أنَّ هذا الماء كسائر المياه في أزمنة السيول التي يُمكن أن يصعد الناس فيها الجبال، أي يربون في الأعلى فيسلمون، وهذا جهل منه وتحقيق بمبدأ الكفر، فهو بهذا يؤكِّد أنه كان كافرًا بأبيه، أراد نوح-عليه السلام-أن يُبَيِّن له حقيقة الحال، وأن يصرفه عن ذلك الفكر، الفكر المُحال، لا تُفكِّر بهذه الطريقة، **ولا يصحُّ التفكير إلا على الإيمان،** وهذا هو أكبر إشكال يعيشه الناس، أنَّهم لا يفكِّرون تفكير من يؤمن، فتجد الإيمان في معزِل عن التفكير واتخاذ القرارات.

فكان نوح-عليه السلام-يبيّن له حقيقة الحال ويصرفه عمَّا في تفكيره وذهنه، والحل الذي افترضه هو من أبطل الحلول **{قَالَ} نوح: {لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ} فلا يعصم أحدًا، جبل ولا غيره، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب، لما نجا إن لم ينجه الله".** لا عاصم من الجبال أو من غيرها، لا مانع يمنعك من أمر الله، اليوم خاصَّة يوم وقوع الهلاك، لا تغترّ بما كنت فيه، فمن رحمه الله-عزَّ وجلَّ-نجَّاه، لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله، ومن رحمه الله هو من ركب السفينة.

لكن لم يقبل هذا الوعظ **"{وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ} الابن {مِنَ الْمُغْرَقِينَ} .**

فلما أغرقهم الله ونجَّى نوحًا ومن معه {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ} الذي خرج منك، والذي نزل إليك، أي: ابلعي الماء الذي على وجهك {وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي} فامتثلتا لأمر الله، فابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء، فنضب الماء من الأرض، {وَقُضِيَ الْأَمْرُ} بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين.

{وَاسْتَوَتْ} السفينة {عَلَى الْجُودِيِّ} أي: أرست على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل. وهو أمرٌ معروف تاريخيًا، قيل هو المعروف بجبل قُرْب الموصل، وقيل كلُّ جبل يُسمَّى الجودي.

{وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} أي: أُتبعوا بعد هلاكهم لعنة وبعدًا، وسحقًا لا يزال معهم. وكل من تذكَّرهم كان يذكُرهم بالسوء.

{وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} أي: وقد قلت لي: فـ {احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ} ولن تُخلف ما وعدتني به. يقول الشيخ: **لعلَّه عليه الصلاة والسلام، حملته الشفقة، وأنَّ الله وعده بنجاة أهله، ظنَّ أنَّ الوعد لعمومهم، من آمن، ومن لم يؤمن، فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء، ومع هذا، ففوَّض الأمر لحكمة الله البالغة.** قال: **{وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}** .

فـ{قَالَ} الله له: {يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} الذين وعدتك بإنجائهم.

من سيكون أهله؟ الذين آمنوا وتابعوا هم أهل الدين، أي إن كان من أهلك باعتبار القرابة ولكنه ليس من الأهل باعتبار الدين، فهو ابنه من جهة القرابة.

{إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ} أي: هذا الدعاء الذي دعوت به، لنجاة كافر، لا يؤمن بالله ولا رسوله.

عمل غير صالح أي لا يرضاه الله، أن تدعو بنجاة من كفر.

{فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} أي: ما لا تعلم عاقبته، ومآله، وهل يكون خيرًا، أو غير خير.

{إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} أي: أني أعظك وعظًا تكون به من الكاملين، وتنجو به من صفات الجاهلين. فحينئذ ندم نوح، –عليه السلام–، ندامة شديدة، على ما صدر منه،

و {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ} وانظر إلى هذا موقف الذُّل مع مكانته وشرفه، ولكن هذا الذُّل هو الذي رفعه، {إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ} أي أطلب منك أن تحفظني، ألجأ إليك وأعتذر منك، وأعترف بخطئي وأطلب المغفرة، وترحمني برحمتك التي وسعت كل شيء، فتقبّل توبتي ولا تجعلني من الخاسرين.

فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين، ودلَّ هذا على أن نوحًا،–عليه السلام–، لم يكن عنده عِلم بأنَّ سؤاله لربّه في نجاة ابنه مُحرَّم، داخل في قوله {وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ} ظنَّ أنَّ طلبه لنجاة ابنه من النوع الثاني، وهي أنَّ الله وعده وأمره احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك.

بل تعارض عنده الأمران، وظنَّ دخوله في قوله: {وَأَهْلَكَ}

وبعد ذلك تبيَّن له أنَّه داخل في المنهي عن الدعاء لهم، والمراجعة فيهم". فلما عرف أن هذا من المنهي عنه، استغفر وعاد واستعاذ.

ولننظر إلى الأفعال التي فعلها نوح-عليه السلام-لما وقع في هذا الخطأ:

- {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ} عبادة الاستعاذة.
- {أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ} فالعبد إن أخطأ، يستعذ بالله، ويطلب من الله أن يحميه من الوقوع في الذنب.
- {وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ} ثم يُظهر العبد فقره لمغفرة الله ولرحمته ولأن يحفظه أن يكون من الخاسرين.

إذًا إذا وقع العبد في ذنب فليستعِذ بالله من ذنبه، يستعِذ بالله من إجرامه، ويطلب من الله أن يعيذه ويغفر له ويرحمه ويبعده عن القوم الذين خسروا.

"{قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ} من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملؤوا أقطار الأرض ونواحيها.

إذًا معنى ذلك، {اهْبِطْ بِسَلَامٍ} بعدما غرقت الأرض فخرجوا من السفينة بسلام سلَّمهم الله، فزال عنهم الخوف، فهم في سلام، أي: أمن وسعة رزق، {اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ} البركات هي الخيرات النامية والنِّعَم الثابتة الباقية، ما يقوم به المعاش من أنواع الأرزاق والبركة، فالأمن والبركة إنَّما يكونان من أثر امتثال أمر الله.

إنَّ الناس جميعًا يَصْبُون إلى هذين الأمرين:

1. يصبون إلى السلام كما يقولون.
2. وإلى حلول البركات في أنفسهم وفي أعمالهم وفي ذراريهم.

فكيف هبط نوح-عليه السلام-بسلام وبركات عليه وعلى الأمم؟ لما اتَّبَع الأمر الذي أمره الله، وهو رسول الله، ولما نوح-عليه السلام-خالف أمر الله وسأل الله عن ابنه وَعَظَه الله، {إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} إذًا معنى هذا ونحن نسير في طريقنا إلى ربنا ما لنا إلا: الطاعة، الاستجابة، لا تخُن، لا تخالف أمر الله وأمر الرسول على ما ترى من حيثيات أو ترى من أسباب.

ها هو ابن نوح رأى الجبل عاصمًا له من الماء، والحق أنَّه لا عاصم إلا الله، هذا معناه أنَّ النَّجاة لا تكون بالرأي، ولا السلام ولا البركات تحل على أي أرض ولا بأي بلد ولا بأي شخص ولا بأي أسرة، يعني من الفرد إلى الأمم، لا السلام ولا البركات تقعان على الأشخاص ولا المجتمعات إلا بمتابعة أمر الله ومنهج النبي-صلى الله عليه وسلم-.

الحياة لم تُترك لك تقترح فيها كيف تسير وتنهج، إنما أُمرت أن تسير على طريق شرعه الله لك وبيَّنه لك الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-، فاجعل أوامر الله وأوامر الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-قائدًا لك في مسيرتك؛ تحل عليك السلام والبركات.

أما السَّلام الذي يكلمونك عنه، وشوَّشُوا الناس وأزعجوهم وأبطلوا عليهم دينهم واختاروا الأزمنة الفاضلة ليبقى الناس في تشويش من شأنهم؛ فإنهم لا يأتون بيوم خير قط، **إنَّ السلام والبركات لا تأتي إلا من أمر الله**، الخائف لا يأمن إلا أن يؤمِّنه الله، وصاحب الحاجة لا يصل إلى حاجته إلا أن يوصله الله، فلمَّا امتثل نوح-عليه السلام-أمر الله، نزل-عليه السلام-والبركات.

"{قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ} في الدنيا {ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: هذا الإنجاء، ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك، أحللنا به العقاب، وإن مُتِّعوا قليلًا، فسيؤخذون بعد ذلك. المعنى: أن هذه الأمم ستتناسل، فمن كان منها مؤمنًا، متَّعه الله، ومن كفر من هذه الذراري مسَّهم في الآخرة أو في الدنيا عذاب أليم.

قال الله لنبيه محمد-صلَّى الله عليه وسلَّم-بعد ما قصّ عليه هذه القصة المبسوطة، التي لا يعلمها إلا من منَّ عليه برسالته. يعني هذا دليل على نبوة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، هذه القصة بتفاصيلها وأحداثها لا يعرفها ولا يعلمها إلا مَن مُنَّ عليه بالنبوة، فهي من دلائل نبوة النبي-صلى الله عليه وسلم-.

{تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا} فيقولوا: إنه كان يعلمها. المعنى أنَّ هذه القصة كانت مجهولة عند العرب، وهو لم يتعلَّمها منهم ولا من غيرهم؛ لأنه لم يختلط بغيرهم، ما كانوا يعرفونها قبل الوحي، فهي دليل صدقه.

فاحمد الله، واشكره واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم والصراط المستقيم والدعوة إلى الله- لابد أن تصبر- **{إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك، كما كانت لنوح على قومه.**

والحمد لله كانت العاقبة للنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، وتكون العاقبة لكل من اتبع النبي-صلى الله عليه وسلم-. **وانظر إنَّها العاقبة وليس الآن، فهذه تسلية للنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وتبشير لكل من سار على الطريق، لا يظفر إلا المتقين في عاقبة الأمر، ولا اعتبار بمبادئ الأمور إنما الاعتبار بعواقب الأمور.**

فإذا علمنا هذا، علمنا أن في بداية الأمور وفي وقت الضوضاء، الفتنة، يكون الناس غير مستبينين الحال، ولا يعرفون ماذا سيكون، إنَّما يغترون بالأسباب {قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ} وأهل الإيمان يعرفون أن التقوى هي التي توصلهم إلى طريق الله، فيتقون أن يخالفوا أمر الله، فيصلوا في عاقبة الأمر إلى الحق، وإلى الرفعة والمنزلة العظيمة، وأهم المنازل المنزلة عند الله.

فنسأل الله بمنِّه وكرمه أن يجعل تعظيم كلام الرسول، ومنهجه، وطريقه الذي به يقينًا نصل إلى ربنا، نسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يجعل تعظيم كلامه في قلوب أبنائنا الراشدين منهم وغير الراشدين، الكبار منهم والشباب والصغار؛ لأنَّه إذا عُظِّم كلام الله وكلام رسوله؛ صحَّ من الناس السَّير، وابتعدوا عن هذا الهياج، ولم يكونوا أيدٍ للمنافقين في كل مكان.

اللهم سلِّم بلاد المسلمين واحفظ دماءهم وأعراضهم، واجعلنا ممن يمتثل الأمر، متيقِّنين أن العاقبة للمتقين.

اللقاء الثالث عشر

تفسير الآيات 42-52 من سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثالث عشر من سلسلة لقاءات هذا الشهر الكريم، واختيارنا اليوم إن شاء الله لأواخر سورة إبراهيم، وفيها من الاعتقادات العظيمة التي على العبد أن يحملها في قلبه لله، ولتفسير ما يحصل معه في الحياة، ولتفسير الأحداث التي تكون حوله الشيء الكثير، وعلى ذلك تكون هذه الكلمات من كتاب الله منارًا لنا نفهم به الأحداث، ونعايش بها الأوضاع، ونكون بذلك من أولي الألباب.

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (44) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52)}[1]

يقول الله-عزَّ وجلَّ-في هذه الآيات: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} لا تعتقد هذا الاعتقاد ولا تظنّ هذا الظنّ، فإنك بذلك تكون لا تعرف الله.

{إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} فإذا أردت أن تعرف تعليل بقاء الظالمين فهذا هو **التعليل**؛ يؤخرهم ليوم هذه صفاته.

ما صفات هذا اليوم؟ يوم تشخص فيه الأبصار.

ومِن حالهم في ذلك اليوم:

(1) [سورة إبراهيم: ٤٢-٥٢]

- أنَّهم مهطعين، سيكون سؤالنا: ما معنى مهطعين؟
- مقنعي رؤوسهم، وأيضًا ما معنى هذا الوصف؟
- لا يرتدّ إليهم طرفهم.
- وأفئدتهم هواء.

فكل واحد من هذه الأوصاف نفهمه، ونعرف كيف سيكون حال هؤلاء الظالمين في الدنيا؟

{وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ} هؤلاء الظالمين خوِّفهم من هذا اليوم فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا اعترفوا الآن بربوبيته كما اعترفوا أولًا بربوبيته، ولكن يريدون الآن أن يتوسَّلوا بربوبيته إلى أمر: {أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ} أي: هم يفهمون أنَّ الله يدعوهم، ويفهمون أنَّهم مأمورون باتِّباع الرُّسل، فذاك اليوم أول ما يواجَهُون يريدون أن يؤخَّروا إلى أجل قريب، وفيه يستجيبون للدعوة ويتَّبعون الرسول.

ونحن نسأل الله أن يجعلنا ممَّن أطاع واستجاب ولم يخُن واتقى الله.

فيكون الجواب عليهم: {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (44) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} المعنى: أنَّه قامت عليكم كل الحُجَج، بعد قيامها قُلتم: ما لكم من زوال{أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ} كيف تقسمون ما لكم من زوال! وأنتم قد سكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم قبلكم وزالوا وأنتم ورثتمُوها {وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ}

فإذا تبيَّن لكم كيف فعلنا بهم، كيف تقسمون أنَّ ما لكم من زوال؟ أين عقولكم؟!

فإذا كنتم عشتم هذا الموقف وأدركتموه تمام الإدراك، وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم تمام البيان كيف فعلنا بهم، وكان أمامكم نماذج تمرُّون عليها في كل وقت ولم تؤمنوا؛ فكيف لو أعادكم مرة أخرى، هل ستؤمنون؟

وهم في تلك الحال، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم، {وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} من شدَّته!

ففي أول السياق الله-عزَّ وجلَّ-بيَّن لنا المنع من الظنّ أنَّ الله يغفل عمَّا يعمل الظالمون.

وهنا منع آخر: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ} لا تظنّ هذا الظنّ أنَّ الله يُخلف وعده رسله {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} وسيظهر هذا الانتقام متى؟ {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} **الواحد** الذي لم يعترفوا بتوحيده، **القهّار** الذي ستظهر آثار قهره عليهم تامَّة في ذاك اليوم.

{وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} وسنرى ما معنى مقرَّنين في الأصفاد.

{سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ} والعياذ بالله {وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} بمعنى أن لا ظُلم {إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} وهذا كلّه الذي سمعته: {هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}.

إذًا ما المصالح من وراء نزول هذا الكتاب؟ بلاغ، إنذار، لتعلم إنما هو إله واحد من أجل أن يتذكر أولوا الألباب.

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

" **هذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين،** بمعنى أن كل مظلوم وقع عليه الظلم، عليه أن يَعلَم عِلم اليقين أنَّ الله ليس بغافل، فأصبح هذا تعزية للمظلوم ووعيدٌ للظَّالِم، وعيدٌ شديدٌ للظالمين وتسلية للمظلومين.

يقول تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} حيث أمهلهم وأدرَّ عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين؛ أي أنَّ **الإمهال صورته:** إدرار الأرزاق والأمن، يتقلبون آمنين، **فليس في هذا ما يدلُّ على حُسن حالهم،** أي لا تظنّ أنَّ أرزاقًا تجري عليهم، وأمانًا نسبيًا يعيشونه ويتقلَّبون فيه، لا تظنّه دليلًا على حُسن حالهم.

فإنَّ الله يملي للظالم ويمهله؛ ليزداد إثمًا حتى إذا أخذه لم يفلته، وهذا ما يستحقه هذا الظالم، فالله-عزَّ وجلَّ-يعامل عباده بالحلم ويربّيهم، ويبيّن لهم قدرته عليهم، فإذا أصرُّوا فتح لهم الأبواب، فظنُّوا من ضعف عقولهم وعدم معرفتهم لربهم، أنَّ هذا هو الدليل على أنَّهم يسيرون في طريق مستقيم، وأنَّهم لو

كان هناك عقاب، لو كان الله-عزَّ وجلَّ-يُعاقِب الظالمين كان خسف بهم الآن، أو لنزع من أيديهم الأرزاق! ولا يفرِّقون بين تربية الله-عزَّ وجلَّ-لعباده المتَّقين المؤمنين وبين معاملة الظالمين.

كثير من الناس يقولون: ممَّا تقرَّر عندنا أنَّ الله-عزَّ وجلَّ-يحرم الإنسان الرِّزق بسبب الذنب؛ يذنب المؤمن الموحد المسلم الذي يشهد لله بشهادة التوحيد يُذنب؛ فنقول له: ذنبك هذا سيسبِّب لك الحرمان من الرزق، فكيف وهو مُسلم يُحرم من الرِّزق وهذا كافر متجبر طاغ ظالم يُدر عليه الرزق؟! نقول: نعم، هنا فارِق كبير بين معاملة الله لأوليائه الذين يُحبُّهم ويُربِّيهم ويُرقِّيهم وبين معاملته لأعدائه:

فإن معاملته لأوليائه يكون وراءها الإنعام عليهم بإذاقتهم آلام المعصية ليعودوا إلى طريقه، ويُنعِم عليهم بأن يضيق صدرهم بعد الآثام ليعودوا إليه وينيبوا.

أما أهل الكفر الذين تولَّوا الشيطان، وركِبوا هواهم، فيعاملهم بما يستحقُّون؛ يتركهم يغترُّون ويظنُّون أنَّما عليهم من نِعَم تدلُّ على أنَّهم على الصراط المستقيم، وهذا كما اتفقنا **يسبقه تربية ويسبقه تعليم لهم ويسبقه معاملة بالحلم**، لكن حين يصرّ القوم تكون هذه معاملة الله-عزَّ وجلَّ-لهم، فقد اختاروا أن يكون هذا حالهم، والله-عزَّ وجلَّ-غنيٌّ عن الخلق كلهم.

بهذا نفهم أن معاملة الله لأهل الإيمان ليست كمعاملة الله لأهل الإعراض والكفر؛ لأن أهل الإيمان حين يأخذهم بالبأساء والضراء يضَّرَّعون، لكن أهل الكفر حين يأخذهم الله-عزَّ وجلَّ-بالبأساء والضراء لا يتضرَّعون؛ ولذلك كما قال الله-عزَّ وجلَّ-في سورة الأعراف: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94)}[1] المؤمنين ما أن يذوقوا البأساء والضراء، مباشرة يضَّرَّعوا، أهل الكفر يزدادون قسوة، {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا}[2] أي دُرَّت عليهم الأرزاق وأصبحوا أهل عافية، فكيف يفسرون ذلك؟

{وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ} يعني أنَّ هذه أحوال الحياة ليست تربية ولا تأديب ولا من أجل أن نعود ولا لحكمة {فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95)} إذًا معنى هذا أنَّ علينا أن يُحسن اعتقادنا في ربِّنا فلا نظنّ ظنَّ السُّوء.

(1) [سورة الأعراف: 94]
(2) [سورة الأعراف: 95]

{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} فلا تظن إدرار الأرزاق وتقلبهم في البلاد مطمئنين آمنين.

قال: "فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم فإن الله يملي للظالم ويمهله ليزداد إثمًا، حتى إذا أخذه لم يفلته {وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [1] **والظلم-ها هنا-يشمل الظلم فيما بين العبد وربه، وظلمه لعباد الله.**

أي أنَّ هناك ظُلم بين العبد وبين ربِّه. **هذا الظلم فيه نوعان:**

1. أن يضع الإنسان شكره وثناءه في غير موضعه؛ فيبدأ من الشِّرك إلى المعاصي، هذا كله يدخل في الظلم فيما بين العبد وربِّه.
2. وظلمه لعباد الله هذا نوع آخر من أنواع الظلم يقترفه الإنسان.

وأنواع الظلم هذه لها مستوياتها ودرجاتها، فيدخل في هذه الآية كل من ظَلَم:

- فيما بينه وبين الله.
- وفيما بينه وبين العباد.

ودرجات الظُّلم يقابلها درجات العقوبة.

{إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} أي: لا تَطْرُفُ من شِدَّة ما ترى من الأهوال وما أزعجها من القلاقل. تشخص بمعنى: أنَّ هذه العين لا تطرف أبدًا. فترفعها وتنظر دون أن يطرف جفنها أبدًا.

{مُهْطِعِينَ} أي: مُسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ.

إذًا **من جهة أبصارهم يشخصون** أبصارهم فلا يحركونها.

ومن جهة حركتهم فهم **مهطعين**؛ أي مسرعين لما دعاهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب لا امتناع لهم.

(1) [سورة هود: 102]

{مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} إقناع الرأس أي رفعه. **أي: رافعيها قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم؛ {لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنَّها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق".**

أفئدتهم فارغة من قلوبهم! صورة عجيبة (أفئدتهم فارغة، هواء!) أي خرجت قلوبهم من مواضعها، فيصبح الفؤاد فارغًا من القلب، قلوبهم صعدت إلى الحناجر، مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق! **فقلوبهم ستكون خالية عن العقل والفهم، مملوءة بالهم والغم والحزن والقلق**، وهذا بسبب ما يشاهدونه من الفزع والحيرة والدهشة، فالحاصل أنَّ القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة، والرؤوس مرفوعة إلى السماء، وهذا كله من هول ذلك اليوم وشدّته!

قال:

"يقول تعالى لنبيه محمد-صلَّى الله عليه وسلَّم-: {وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ} أي: صِف لهم صِفة تلك الحال. -التي ستكون يعني يوم القيامة- **وحذِّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله {فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا} بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي نادمين على ما فعلوا سائلين للرَّجعة فيغير وقتها،{رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ} أي: ردَّنا إلى الدنيا فإنا قد أبصرنا.** بعدما كانوا في عمى، عُمِّيَت عليهم الأنباء، يفكِّرون في أهوائهم وفي مصالحهم ولا يبحثون عن ما يُنَجِّيهم ويرفعهم يقولون: **{نُّجِبْ دَعْوَتَكَ} والله يدعو إلى دار السلام.**

{وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ} وهذا كله لأجل التخلُّص من العذاب، وإلا فهم كَذَبة في هذا الوعد {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [1].

ولهذا يُوَبَّخون ويقال لهم: {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ} عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، فها قد تبين حنثكم في إقسامكم، وكذبكم فيما تدعون.

بمعنى أنَّ طلبكم هذا أتى، وأنتم الذين تجبَّرتم وقلتم أنَّه مالكم من زوال، فقد قالوا في مواطن: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ}[1]، فهذا كان قولهم.

(1) [سورة الأنعام: 28]

{أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم} أقسموا على أي شيء؟ {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ} **عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة.** والموت في تفسيرهم نهاية كل حي، أنه سيموت وتنتهي الحياة.

فها قد تبين حِنثكم في إقسامكم بهذا اليوم العظيم، **وكذبكم في ما تدَّعون، {وَ} ليس عملكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات،** أي الذي جعلكم تُكذِّبون في الدنيا ليس قصور الآيات، فقد كانت الآيات غاية في الوضوح. **بل {سَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ} من أنواع العقوبات؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات، وضربنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته،**-لكن لمن كان يريد الحق-**فلم تنفع فيكم تلك الآيات بل أعرضتم ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.**

إذًا **الآيات غاية الوضوح** لكن **تُعَمَّى** عمن لا يريد الحق، **تُعَمَّى** عمن لا يسأل الله الثبات، **تُعَمَّى** عمن لا يستهدي الله!

{وَقَدْ مَكَرُوا} أي: المكذبون للرسل {مَكْرَهُمْ} الذي وصلت إرادتهم وقدر لهم عليه. أي أن هذا المكر وصلت إليه إرادتهم والله-عزَّ وجلَّ-أقدرهم عليه **{وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ} أي: هو محيط به علمًا وقدرة، فإنَّه عاد مكرهم عليهم {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}**[2].

{وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق، وبمن جاء به-من عظمته-ومن عظمة هذا المكر ومن خططهم وما يبذلون، **لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها.**

فلذلك لا تستعجب أن تجدهم في بغضهم وكراهيَّتهم لما جاء به الرُّسل من أجل تضليل الناس عن هذا الذي جاء به الرسل، يبذلون أموالهم وأوقاتهم ويجنّدون جنودًا، وتكون عندهم منظمات سرية، وتكون عندهم أعمال فيها تضحية عظيمة بجهودهم وأوقاتهم وأبنائهم، وهذا كلُّه مكرٌ منهم، والله يصف مكرهم

(1) [سورة النحل: 38]
(2) [سورة فاطر: 43]

{لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} أي لو نفذ مكرهم لزالت منه الجبال! المعنى: أن مكرهم عظيم استفرغوا فيه وسعهم، لكن لا تبتئس لمكرهم.

أي: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا}[1] لا يقادر قدره ولكن الله ردّ كيدهم في نحورهم.

ونحن نرى ما يبذلونه من صناعة الإعلام كسلاح يهدم البيوت ويقتل العقيدة الصحيحة، ونقول هذا المكر الذي مكروه لا يحيق إلا بهم، والله يجعل هذا الإعلام سلاحًا في يد أهل الإيمان، ويجعل وسائلهم التي اخترعوها وسيلة لأهل الإيمان لنشر الحق.

ويدخل في هذا كل من مَكَر من المخالفين للرسل، لينصر باطلًا، أو يُبطل حقًا، والقصد أنَّ مكرهم لم يغن عنهم شيئًا، ولم يضروا الله شيئًا، وإنما ضرُّوا أنفسهم". ومن تأثَّر بمكرهم وتابعهم فإنَّه ضعيف الإيمان، لم يُحفَظ بحفظ الله؛ لأنَّه لم يُقبِل على الله كما ينبغي.

اللَّهم ثبِّتنا وقوِّي إيماننا نحن وذرارينا، واحفظنا والمسلمين وذرِّياتهم من شر الكائدين الماكرين إنك على كل شيء قدير.

إذًا انتهى السياق الأول بأن تحسن ظنَّك بالله، ولا تحسب أنَّ الله يغفل عما يفعل هؤلاء الظالمين من تقتيل وتشريد للمسلمين، لا تظن ذلك، إنَّما يؤخِّرهم ليوم يحصل فيه من الأهوال، ويحصل عليهم من العذاب، ما لا يستطيع أحد أن يردَّه عنهم، ولا أن يقدِّر قدر هذا العذاب، وفي ذلك هم ليسوا بالمظلومين، بل هم مستحقون لما يقع عليهم من عذاب بسبب ما يمارسون من مكر مكروه.

"يقول الله-عزَّ وجلَّ-: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ} بنجاتهم، ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، إذًا أحسن الظن بالله ولا تحسبنَّ الله غافلًا عما يعمل الظالمون، ولا تحسبنَّ الله مخلف وعده لرسلِه عليهم السلام هم وأتباعهم، بل سينجيهم وينجي أتباعهم ويهلك أعداءهم ويخذلهم في الدنيا.

وعقابهم في الآخرة، فهذا لا بدَّ من وقوعه لأنه، وعد به الصادق-سبحانه وتعالى-قولًا على ألسنة أصْدَق خلقه وهم الرُّسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصًا وهو مطابق للحكمة الإلهية،

(1) [سورة نوح: 22]

والسنن الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء. إذًا الله وَعَد، والوَعْد هذا أتانا على ألسنة الرسل، نحن نصدق هذا الخبر يقينًا، وهذا من إيماننا بالله المؤمن المُصدِّق لخلقه ما وعدهم، وهذا الوعد ترى كم هو مُطابِق للحكمة الإلهية، فالدنيا دار اختبار، فهناك من ائتمر بأمر الله وهناك من لم يأتمر، فتبقى الدنيا دار اختبار؛ الجزاء في الآخرة. فأنت ترى أنَّ الله لا يمكن أن يكون غافلًا عما يعمل الظالمين، لا يمكن أن يخلف رسله وأتباعهم ما وعدهم، خصوصًا أنه وعد، وأنَّ وعده هذا مطابق للحكمة الإلهية، والسنن الربانية، وللعقول الصحيحة. ولماذا تتصوَّر أنَّه يخلف وعده **وهو {عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ}**".

إذًا نجد اعتقادين الآن علينا أن نحملهما في قلوبنا:

أولًا: إذا كان أهل المكر يمكرون فإن مكرهم عند الله، أي أنَّ الله محيطٌ بمكرهم، وسيجعل مكرهم عليهم.

ثانيًا: أن تعتقد أن الله عزيز ذو انتقام، يعني ينتقم ممن أراد أن ينتقم منه، **"فإنه عزيز ذو انتقام: أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته ولا يعجزه".**

وهذا الانتقام ممكن أن يكون في الدنيا وممكن أن يكون في الآخرة، لكن الأصل أنه يوم القيامة، وأنَّ الدنيا تبقى دار اختبار، يُختَبَر فيه من صدَّق بوعد الله ممَّن غرَّته المظاهر والأحوال.

فإن كثيرا اليوم من يرى أحوال العالم الإسلامي في كل مكان فيقع في قلبه اليأس من روح الله وعدم الثقة في وعد الله ما يدلّ على ضعف الإيمان! الله يمكُر بالماكرين فيجعل مكرهم مردودًا عليهم، وينتقم من المجرمين، فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وكم مكروا فجعل الله مكرهم سببًا لنَصرَة الدين.

ونحن على يقين أنَّ الباطل لا يمكن أن يدوم في العلو، وأنَّ الحق هو الذي له الإدالة الدائمة، والباطل أحيانًا يظهر على الحق اختبارًا وامتحانًا.

"{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} تظهر تمام عزّته. **وذلك في يوم القيامة، {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} تبدل غير السماوات، وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات،** تبقى الأرض هي الأرض والسماء هي السماء إلا أن صفتهما تتبدل.

فإنَّ الأرض يوم القيامة تُسوَّى وتُمَد كمدِّ الأديم، ويُلقى ما على ظهرها من جبل ومَعْلم، فتصير قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمتًا، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم ثم يطويها الله تعالى بيمينه. وهذا كله مما نعتقده في **الدار الآخرة**، أنها أحداث يقينًا ستكون.

{وَبَرَزُوا} أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء، هذه **أحداث البعث، أحداث عظيمة** يجب أن تكون منا على بال؛ لأننا سنكون فيها، وستمرُّ علينا وسنعيشها يقينًا، سنبرز لربّنا ما يخفى عليه منَّا أحد، سنقف بين يديّ الله الواحد القهار.

{لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتدبيره، فلا يتحرك منها متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

لكن القوم لا يعرفون الحق، فيظنوا عطايا الله لهم ملك، ففي ذاك اليوم يبرزون بين يدي **الواحد القهار**.

{وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ} أي: الذين وصْفُهم الإجرام وكثرة الذنوب، وماتوا بلا توبة ولا عودة ولا إنابة إلى ربهم. تراهم **{يَوْمَئِذٍ} في ذلك اليوم {مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار، فيُقادون إلى العذاب في أذلِّ صورة وأشنعها وأبشعها.** وقد كانوا في الدنيا يستهزؤون بحقائق الإيمان، ويستهزؤون بلقاء الله ويُصرُّون على هذه الذنوب.

{سَرَابِيلُهُم} أي: ثيابهم {مِّن قَطِرَانٍ} وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها ونتن ريحها. والعياذ بالله.

{وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ} التي هي أشرف ما في أبدانهم، التي لا يشرفوها بالسجود. {النَّارُ} أي: تحيط بها وتصلاها من كل جانب، -إذا كانت الوجوه وصلها النار إذًا- **وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، وليس هذا ظلمًا من الله لهم؛** -لذلك أنت دائمًا تسمع في القرآن ويكرَّر عليك، كيف أنَّ الله أنذرهم، كيف أنَّهم يردون على الأنبياء، ماذا يفعلون، تعرف أنه لمن يقع عليهم العذاب أنهم يستحقون-**وإنَّما هو جزاءً لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} من خير وشر بالعدل والقسط الذي لا جَوْرَ فيه بوجه من الوجوه.**

{إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} كقوله تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ}[1]" يعني كأنَّه يُقال: سيأتيك الحساب ليس ببعيد، الأيَّام مهما طالت ستنطوي سريعًا، وسيأتي وقت الحساب، هذا معنى.

"ويحتمل أنَّ معناه: سريع المحاسبة في حاسب الخلق في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة لا يشغله شأن عن شأن وليس ذلك بعسير عليه سبحانه".

والله أعلم بما هو المقصود، لكن قد ورد في بعض النصوص أنَّ يوم القيامة يكون للمؤمن الذي آمن بالله وبكمال صفاته، وآمن بلقائه، وامتلأ قلبه يقينًا بذاك اليوم العظيم، وامتلأ معرفة بما سيكون فيه، يكون هذا اليوم العظيم الهائل كما بين الظهر والعصر للمؤمن.

اللهم يسِّر حِسابنا وبيِّن كتابنا!

يقول: "فلما بين البيان المبين في هذا القرآن بعد ما تبيَّن لنا ماذا يجب علينا أن نعتقد من أول السورة المقصود، وهنا أسأل الله أن تكون امتلأت قلوبنا يقينًا بالله وثقةً به، أنَّ الظالم أيًّا كان موقعه ومكانه فالله-عزَّ وجلَّ-ليس بغافل عنه، وأنَّ الله لا يُخلف وعده رسله، ولا يتطرَّق إلى قلوبنا أبدًا هذا الحسبان، بل نتقرَّب إلى الله باليقين أنَّ شرَّ هؤلاء زائل، نسأل الله أن يُعجِّل بالفرج للمسلمين في كل مكان سواء كان هذا على مستوى الدول أو على مستوى الأفراد.

أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يُعَجِّل للمسلمين الفرج في كل مكان، ويزيل الظالمين، ويحقِّق لنا ما وعده على لسان رسوله ونحن على يقين أنَّه يتحقق، رأينا ذلك أو لم نراه.

لمَّا بيَّن لنا هذا البيان المبين واطمأنت نفوسنا، ونسأل الله أن تطمئن نفوسنا لما ذكر، ونتقرَّب إليه بهذا اليقين **"قال في مدحه**-القرآن-: **{هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ} أي: يتبلّغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات،** فهل نشعر تجاه القرآن أنَّه مثل الزَّاد الذين نأخذه فنبلغ به في **اعتقاداتنا وأعمالنا إلى المراتب العليا ونبلغه إلى يوم لقاء الله** ونحن في أحسن حال؟! هل هذا هو اعتقادنا في القرآن؟

(1) [سورة الأنبياء: 1]

{هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ} يتبلّغون به إلى المراتب العليا، يتبلّغون به إلى لقاء الله.

فأنت تعيش في أحوال، ضجيج، لا تعرف الحق من الباطل، فيأتيك هذا القرآن وتأتيك ما فيه من علوم وما فيه من آيات **كالماء البارد**، تسير وتبلغ به المقامات العالية.

وهذا من **أعجب أوصاف القرآن**، أنك أنت بالقرآن تبلغ، فأنت في سفر سائر تحتاج إلى زاد، فهذا القرآن يحصل به البلاغ، تتزوَّد به للوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات.

لِمَا اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد".

{وَلِيُنذَرُوا بِهِ} لما فيه من الترهيب من أعمال الشرِّ، وما أعدَّ الله لأهلها من العقاب؛ لذلك فلا تظن أنَّك لا تحتاج إلى الترهيب، الله الذي خلقك، علَّمك، رغَّبك، ورهَّبك، صغيرًا كنت أو كبيرًا، شابًا أو متقدمًا في العمر، طفلًا أو مراهقًا، الجميع يحتاج ونفي مسيرتهم إلى ربِّهم أن يعرفوا ما في القرآن، وكلَّما علَّمته أكثر، ازداد ثباته أكثر، شرح الله صدره للقرآن، فيتبلَّغ بهذا القرآن لأعلى المراتب.

{وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ} فالقرآن أعظم ما فيه أن تصل إلى هذه الحقيقة، تستفيد مما ورد ما في القرآن.

حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته، ما صار ذلك حق اليقين. إذن لو قرأت القرآن كما ينبغي ستصل إلى حق اليقين أنَّ الله إله واحد، وأنَّه لا يستحق غيره الألوهية.

{وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} أي: العقول الكاملة، ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر".

إذًا: من هم **أولوا الألباب؟** هم أصحاب العقول الكاملة الذين عندهم عقل رشد، هؤلاء أصحاب العقول الكاملة ما وصفهم؟ هؤلاء **يتذكرون ما ينفعهم**، يعني يعرفون الشيء الذي ينفعهم فيفعلونه، ويعرفون ما يضرهم فيتركونه، معنى هذا أن أهل العقول وهم أولوا الألباب علومهم مرتكزة على القرآن، النفع عندهم الشيء النافع عندهم مصدره ما عرفوا من القرآن، الضار عندهم مصدره ما عرفوا من القرآن.

وهذا أمر عظيم قليل من يفهمه، فإن كثيرًا ممَّن يحفظون كتاب الله لا يجعلون الحق والباطل مصدره من القرآن، الأشياء التي يستسيغونها حقًّا أو يَمُجُّونها باطلًا ممكن أن تكون من عاداتهم وتقاليدهم وليست من القرآن.

المقصد أن أهل العقول الكاملة يعرفون ما ينفعهم فيفعلونه وما يضرهم فيتركونه لذلك صاروا من أولي الألباب. **"إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم.** بالقرآن حصل هذا الشيء.

إذًا عصر النور هو العصر الذي يصبح فيه القرآن قائدًا لأفكار الناس

وليس عصر التنوير الذي يرفض فيه الناس القرآن، إنه عصر الظلمة الدامسة وليس عصر التنوير.

لما أخذوه غضًّا طريًّا: هم أخذوا القرآن من القرآن، أخذوا الأوامر من القرآن، أخذوا النواهي من القرآن، وما حال بينهم وبين القرآن أحد.

فإنَّه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها. كل الذي في القرآن يدعو لأعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، وهذه الأعمال العالية والأخلاق العظيمة تجد أدلَّة عليها بأقوى الأدلَّة وأبينها، أي أن كل أمر أُمِرنا به، أو خُلُق أُمِرنا أن نتخلَّق به، عليه أدلَّة سواءً كانت الفطرية أو العقلية ما تجعل هذا الأمر غاية في الأهمية، وتجعل كل من كان سليمًا من الهوى يوافق على أنَّ هذه الأخلاق والأعمال مهمَّة للإنسان.

وهذه القاعدة إذا تدرَّب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة".

ما هي هذه القاعدة؟

أن يكون صاحب عقل كامل من أولي الألباب، يقرأ القرآن يتعلَّمه وتتنوَّر أفكاره، يرى ما يدعو إليه القرآن، فيجعل مقياس الشيء النافع هو ما دلَّ عليه القرآن، والشيء الضار هو ما نهى عنه القرآن، فإذا تدرَّب الإنسان في هذه الطريقة، ترقَّى؛ لا يزال في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة.

وهذا معناه أن **أهل الإيمان يجعلون القرآن أمام أعينهم**، يعتقدون في حياتهم من خلال القرآن.

فنحن اليوم قرأنا أمرًا عظيمًا، **قرأنا اعتقاد في الله-عزَّ وجلَّ-يجب أن يكون يقيني؛ نحن على يقين:**

- أنَّ الله ليس بغافل عمَّا يعمل الظالمون.

- أنَّ الله لا يُخلِف وعده رسله.
- أنَّ الله يردُّ على الماكرين ويردُّ عليهم مكرهم.
- أنَّ الله ينتقم من المنتقمين.

لكن ما تفاصيل هذا؟ وكيف يكون في الدنيا والآخرة؟ هذا كلُّه شأنه إلى الله.

لكن أنت المطلوب منك أن يمتلئ قلبك يقينًا، وهذا اليقين يظهر على جوارحك ومن ثم يصبح القرآن هو الذي يهديك إلى ربك، ويسير بك في اعتقاداتك وفي معاملاتك، وتعرِض من ثَمَّ عن الجاهلين؛ لأن أكثر ما يؤذينا ونحن نسير في طريقنا إلى ربِّنا ونتعلم عنه ونمتلئ باعتقادات صحيحة من القرآن، أكثر ما يؤذينا هم القوم الذين يجهلون.

اللهم علِّمنا وعلِّم المسلمين، وأصلحنا وأصلح شأن المسلمين، واجعل آخر كلامنا من الدنيا هذه الكلمة العظيمة؛ كلمة (لا إله إلا الله).

اقبل منَّا أعمالنا، وأصلح لنا قلوبنا، واكفِنا شرَّ أنفسنا، واجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

اللقاء الرابع عشر

تفسير الآيات 121–128 من سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الرابع عشر من سلسلة اللقاءات في هذا الشهر المبارك، ولازلنا نتمتَّع بفضل الله بفهم كلامه-سبحانه وتعالى-، وهذه نعمة يمنُّها الله على من شَاء من عباده. فنسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين على نعمائه، الراغبين إليه بالمزيد وهو-سبحانه وتعالى-يُحِبُّ من عباده الطمع والرجاء في رحمته، ويُحِبُّ من عباده طلب المزيد في شأن دينهم وفي شأن العِلْم؛ ولذلك أمَرَ نبيَّه بأن يطلب وسيتزيد {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[1] فاللَّهُمَّ زِدْنا علمًا، واجعل علمنا ننتفع به، ويظهر أثره في أعمال قلوبنا وأعمال جوارحنا، ويثقِّل ميزاننا يوم أن نلقاك، نحتسب عليك يا ربَّنا أن تكون هذه الساعة ساعة تنفعنا بها لمَّا نلقاك.

ولقاؤنا اليوم بإذن الله نُناقِش فيه **موقف يُثني فيه اللهُ على خليلِه إبراهيم**، ونكون بذلك قد مررنا للمرة الثالثة على مواقف وثناء الله لإبراهيم-عليه السلام-.

وممَّا يتعجَّب له: أنَّ هذا الموقف في سورة النحل؛ التي خلت من القصص والأخبار عن الأنبياء، بل كانت كلّها في إظهار استحقاق الله للتوحيد بذكر نعمه وآلائه وأوصاف كماله-سبحانه وتعالى-، وكان الموحِّد حقَّ التوحيد هو الذي نظر إلى كمال إنعام الله عليه وإلى آلاء الله عليه، وإلى كمال صفات الله-عزَّ وجلَّ-التي تظهر في كل شيء، فشكر الله.

فإن **الشُّكر** هو **دليل التوحيد** {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[2] **فالشَّاكر هو** الذي وحَّد ربَّه في نسبة النعمة إليه، وكان من أثر نسبة النعمة إليه وحده أن **يشكره وحده**، أمَّا من تداخلت نفسه أمور فشتَّته عن نسبة النعمة إلى الله وحده، أو شتَّته أصلًا عن الشُّعور بالنِّعمة، أو ظنَّ أنَّه هو صاحب النِّعمة، فهذا تجد شوبًا في توحيده، وتجد ذلك أيضًا في شكره، فحينما تُختَم هذه السُّورة العظيمة؛ التي فيها دلائل توحيد الله بنعمائه، وأنَّ الواجب شكره، وأنَّ الموحِّد هو الذي يشكر، عندما تختم بذكر إبراهيم-عليه

(1) [سورة طه: ١١٤]
(2) [سورة الإنسان: ٣]

السلام-يدلُّ ذلك على أنَّه كان نموذجًا في التوحيد، نموذجًا في الشُّكر، وهذا يتبيَّن بوضوح من خلال الآيات.

يقول-سبحانه وتعالى-في ختام سورة النحل التي فيها عرض لحقائق تدفع الإنسان مباشرة إلى التوحيد، قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124) ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (128)}[1]

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ}

وهذه الخمس صفات من إبراهيم-عليه السلام-أنه:

1. أمَّة.
2. أنَّه قانتًا لله.
3. أنَّه حنيف.
4. أنَّه لم يكن من المشركين.
5. أنَّه شاكرًا لأنعمه.

وهذه الخمس صفات من إبراهيم-عليه السلام-قابلتها خمس عطايا من الله:

(1) [سورة النحل: ١٢٠ – ١٢٨]

1. اجتباه.
2. وهداه إلى صراط مستقيم.
3. وآتيناه في الدنيا حسنة.
4. وإنه في الآخرة لمن الصالحين.
5. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين.

إذًا من مكانته عند ربّه: جعل نبيَّنا-صلَّى الله عليه وسلَّم-تابعًا له في ملَّته الحنيفيَّة {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

فإذًا هذه مكانة إبراهيم-عليه السلام-عند ربّه، هذه صفات إبراهيم-عليه السلام-، وهذا عطاء الله-عزَّ وجلَّ-له.

ثم يقول سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ} وسنفهم ما معنى السَّبت؟ {عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}.

يتوجَّه الأمر إلى النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، وإلى كلِّ من يصلح له الخطاب: {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}.

ربُّنا الله أعلم بمن ضلَّ عن السَّبيل وأعلم بالمهتدين، أنت ادع إلى سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادِلهم بالتي هي أحسن، وهذا كلّه سمعته في السورة، يعني من قرأ سورة النحل علِم كيف امتنَّ الله على خلقه المؤمنين بتعليمهم كيف يعرضون التوحيد؟ كيف يُنبِّهون عليه؟ كيف يُبيِّنونه للناس؟ كيف يدعون إلى سبيل ربهم بالحِكمة؟ فيخاطبوا كل قوم بما يناسبهم، وأيضًا يخاطبون الناس بالموعظة الحسنة، ويجادلون من كان الجدل في حقه طريق يوصل إلى بيان الحق، هذا ما على الخلق المهتدين المؤمنين الطائعين الداعين إلى ربهم، وهو-سبحانه وتعالى-أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.

فمن أراد أن يتعلَّم كيف يدعو إلى الله فعليه بسورة النحل، هذه السُّورة تُعلِّم كيف تدعو إلى أهم المُهِمَّات وهو التوحيد، وكيف تعرضه، وكيف تعظ الناس فيه، وكيف تجادلهم، فإذا أحسنت في الدعوة إلى التوحيد، فأنت فيما بعده محسن.

يقول الله-عزَّ وجلَّ-: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ} وهذا سيتبيَّن لنا علاقته بما مضى، وكيف أنَّ هؤلاء القوم الذين دعاهم النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، وبيَّن لهم كيف يحصل منهم الاعتداء، والعبد في طريقه يدعو إلى الله كيف يسير، خصوصًا حال اعتداء الخلق عليه.

{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} القوم الذين ردُّوا الدَّعوة لا تحزن عليهم ولا تكن في ضيقٍ ممَّا يمكرون، هذه المشاعر الإنسانية التي تدلّ على الاهتمام تنفع صاحبها إلى حدٍّ ما، لكن بعد ذلك يُخشى على الإنسان أن يكون هذا الحزن ليس في مكانه، ومن ثمَّ يؤخِّره عن القيام بما يجب عليه.

{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} فخُتمت هذه السورة العظيمة بالإشارة إلى معية الله-عزَّ وجلَّ-، التي هي غاية كل مؤمن تيقّن أنَّ سعادة الدنيا والآخرة وفلاحهما لا يكون إلا بأن يكون الله-عزَّ وجلَّ-راضيًا عن العبد معه، وسيتبيَّن لنا إن شاء الله معنى المعيَّة، وكيف هي في حق الله، وكيف هي نعمة عظيمة يسعى إليها الموحِّدون ويرجونها، يرجون أن يكون الله-عزَّ وجلَّ-معهم وهو مع المحسنين.

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

في قوله تعالى: **{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}**

"يُخبر تعالى عمَّا فضَّل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصَّه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة".

إذًا هذا ما نعتقده أنَّ إبراهيم-عليه السلام-خليل الرحمن-سبحانه وتعالى-، له مرتبة الخُلَّة يُحبُّه-سبحانه وتعالى-، ولأنَّ الله يحبُّه فنحن نحبُّه، نتقرَّب إلى الله بِحُبِّ من يُحِبُّ-سبحانه وتعالى-.

يُخبر تعالى عمَّا فضَّل به خليله وخصَّه به من فضائل عالية ومناقب كاملة.

فكانت أول فضيلة:

1) " **{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير هاديًا مُهتديًا**".

هاديًا لغيره مُهتديًا بنفسه، وهذه الصِّفات جمعت صفات الخير كلّها، أي إمام جامع لخصال الخير، إمام فيه كلِّ صفة خير، مهتديًا بنفسه هاديًا لغيره، فالنَّاس ينظرون إلى مسلكه ويسيرون خلفه لربِّهم.

ومن صفاته العظيمة أنَّه:

2) " **{قَانِتًا لِلَّهِ} أي: مديمًا لطاعة ربّه مخلصًا له الدِّين**".

قائم بالطاعة دائم عليها، قانتٌ بمعنى دائمٌ على طاعة الله، والمعنى: أنَّ العبد الطائع لربِّه يُصبح قانتًا إذا أدام الطاعة، ولم يقطعها ويتركها من غير سبب صحيح، وإنَّما تركها كسلًا أو تهاونًا، وهذا كما يُقال في حقِّ الفرائض يُقال في حقِّ النوافل، وقد أشار النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-إلى ذلك: ((أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ))[1]، فالدوام على الأعمال يجعل من صفة الإنسان أنَّه قانتًا.

والله يُحِبُّ القانت أي: المديم على طاعة ربِّه، ويكون في هذه الإدامة مخلصًا لا يريد غير وجه الله، فإذًا القانت جمع مع إخلاصه في طاعته الدوام على الطاعة.

- فإذا بلغك مثلًا خبر أنَّ المؤمن يُحافظ على الوضوء: ((لاَ يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ))[2]، إذا بلغك هذا الخبر فلِكَي تكون قانتًا لله تديم أن تبقى دائمًا متوضئًا، فإذا وُجِد ما يُفسد وضوءك، تحرص على أن تتوضأ، فتبقى كلّ وقتك على وضوء.
- وهكذا يأتيك خبر عن السِّواك وعن مكانته، وعن أنَّ النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-حريصٌ على السِّواك، ويبيّن مكانته لأمَّته دائمًا، فأنت تكون أيضًا ذا حرص على السِّواك، كلَّما تعلَّمت أخْلَصْت وأَدَمْت، فيكون عملك دِيمة، هذا معنى (قانتًا).

نأتي إلى **حنيفًا**، يقول:

3) " **{حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} مُقبِلًا على الله بالمحبَّة، والإنابة والعبوديَّة مُعرضًا عمَّن سِواه**".

أي في الحنيف يجتمع أمران:

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (1305)

(2) رواه ابن حبان في صحيحه (1037)

1. الإعراض عمَّن سواه.
2. الإقبال عليه.

إذًا الحنيف سيميل عن غير الله، ويُقبِل على الله.

وعندما يُقبِل على الله يكون هناك صفات في إقباله، يُقبِل إقبال المُحِبّ، يُقبِل إقبال المُنيب الذي لا يستطيع البُعد، إذا شغله شاغل أو غفل أسرع فعاد، ينيب أي: يُقبِل إقبال العبد المنكسر الذليل الذي يُحبّ أن يرضى عنه ربُّه، **فالحنيفيَّة** وصفٌ عظيمٌ فيه إقبالٌ على الله، وفيه إعراضٌ عن غيره، فلا يكون العبد من **الحنفاء** إلا إذا أعرض عن غير الله، وأقبل على الله، أقبل على الله إقبال المُحِب المنيب، العبد الذَّليل الذي يرجو رضا سيِّده ومولاه، ويتقرَّب إليه بالقُرب وهو طامع في رضاه، هذه حنيفًا.

4) " {وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} في قوله وعمله، وجميع أحواله لأنَّه إمام الموحِّدين الحنفاء".

فمن أقبل على الله وأعرض عمَّن سِواه، كان شديد الحرص على ألا يُشرك في قوله أو عمله أو في جميع أحواله مع الله أحدًا، فيكون شديد التحرُّز، لا يدخل في شيء لا يعرف شأنه من جهة التوحيد، فكما أنَّه مُعرض عن غيره مُقبل على ربِّه فهو شديد التحرز من الشِّرك، يخشى أن يقع في الشِّرك بصورة أو بأخرى، وهذا الشِّرك-كما وُصف في الحديث-دقيق دقة تكاد لا تراها، تلك النملة السوداء على الصفاة، على الصخرة الصماء الملساء في الليلة السوداء، فماذا سترى في الليل البهيم الأسود على صخرة صماء؟! فإذا كان المرئي هو النملة فمن اليقين أنك لن تراها.

فهذا **خطر الشِّرك**، فكان إبراهيم-عليه السلام-حنيفًا مائلًا إلى ربِّه، معرضًا عمَّن سواه، وأيضًا كان حذرًا حريصًا خائفًا من الشِّرك، ولا يختلط بأهله {وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} حذرًا من الرِّضا بأحوال أهل الشِّرك.

وهو **إمام الموحِّدين الحنفاء**، فهذا ما نعتقده فيه، وهذا ما نريده لأنفسنا.

5) " {شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ} أي: آتاه الله في الدُّنيا حسنة، وأنعم عليه بنعمٍ ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها".

وما أعظم الشُّكر في دلالته على التوحيد، إنَّ العباد {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[1] **فالشُّكر** هو دليل التوحيد؛ لأن من **عَلِم أنَّ الله وحده الذي أنعم، سيشكر الله وحده المُنعِم.**

فالله-عزَّ وجلَّ-أنعم عليه نعمًا عظيمةً فقام هو بشُكرِها، ومن أراد أن يسير سيره فعليه أن **يُحرِّك قلبه تجاه نِعم الله،** وأن يشعُر بعظمتها، ويشعر بفقره إليها، ويشعر أنَّ ما معه من نِعم ليس كما اتفق، وإنَّما صبَّها الله عليه صبًّا، وأعطاه إياها عطيَّة، ورزقه الله إياها رزقًا، فيُمحِّض نسبة النِّعمة إلى الله، ثمَّ إذا تحرَّك قلبه بذلك، كان الواجب عليه أن يعلم أنَّه لا يحفظها عليه إلا الله، فكما أنَّه يشعر بوجودها، عليه أن يطلب من الله حفظها، فيخاف أن **يُحرم بسبب ذنوبه.**

ثم إذا فعل هذا بقلبه، لابدَّ من شُكر لسانه وجوارحه وهذا أمر معلوم، نسأل الله أن يجعلنا من الشَّاكرين.

"فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن

1- {اجْتَبَاهُ} ربُّه واختصَّه بخلَّته، وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقرَّبين".

إذًا اجتباه، اختصَّه، فالشُّكر وسيلة عظيمة من وسائل القرب الذي يلحقها اصطفاء.

2- " {وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} في عِلمِه وعَمَله، فعَلِم بالحقِّ وآثره على غيره".

وهذا من آثار الصفات التي مضت وخاصَّة الشُّكر، هداه إلى الصراط المستقيم في عِلمه وعَمله، فعلِم بالحقِّ وآثره على غيره، كما مرَّ معنا في مواقفه الماضية، وكيف أنَّه جادل من جادل من أهل الشِّرك، وكيف اجتباه ربه.

إذًا **اجتباه:** هداه إلى صراط مستقيم في العلم والعمل.

3- " {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} رزقًا واسعًا، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقًا مرضيَّة".

بقي له لسان صدق في العالمين، وهذا كله من آثار ما مضى من صفات وأخصَّها التوحيد، الذي له آثار، وأعظم آثار التوحيد الشُّكر.

---

(1) [سورة الإنسان: ٣]

4- " {وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى، ومن أعظم فضائله أنَّ الله أوحى لسيِّد الخلق وأكملهم أن يتبّع ملَّة إبراهيم، ويقتدي به هو وأُمَّته".

5- {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}"

ومن أعظم فضائله التي تفضَّل بها على إبراهيم، فنحن بنبيِّنا-صلَّى الله عليه وسلَّم-وإبراهيم مقتدون، وعلى خطاهم سائرون، ونسأل الله-عزَّ وجلَّ-على ذلك كله القبول وأن يجمعنا معهم في يوم الدين، فإنَّنا نحبُّهم حبًا نرجو به الدرجات العُلا، ونصلِّي ونسلِّم عليهم، ونرجو من الله أن يصلِّي علينا بصلاتنا عليهم، فإنَّنا نعلم منزلتهم ومكانتهم عند ربِّهم، فنحبّهم قربة إلى الله، نحبُّهم علَّ الله أن يجعل حبَّنا لهم سببًا لحشرنا معهم، وأن يكون حبّنا لهم سببًا لرضا ربِّنا عنَّا.

لما سمعنا خبر الخليل أتت الآيات بعده تخبر عن أصحاب السَّبت، والمقصود بهم هنا خاصَّة القوم الذين أصبح السبت عليهم فرضًا، وسنفهم ما معنى ذلك من خلال كلام الشيخ.

"يقول تعالى: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ} أي: فرضا {عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ} حين ضلُّوا عن يوم الجمعة وهم اليهود، فصار اختلافهم سببًا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله هذه الأمَّة إليه".

الحمد لله الذي هدانا وأسأل الله أن يثبِّت علينا نعماءه.

يقول تعالى: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ} أي فرضًا، على الذين اختلفوا فيه حين ضلُّوا عن يوم الجمعة، والمقصود بهم هنا اليهود، الذين خيَّرهم الله في أيام العبادة، وأبرز لهم وبيَّن لهم فضيلة الجمعة، وكان إبراهيم-عليه السلام-قد اختار في شرعه يوم الجمعة، ومثله نبينا-صلَّى الله عليه وسلَّم-، لكن هؤلاء جعلوا يوم السبت هو يوم طاعتهم، فكانوا يقولون كما ورد عن ابن عباس أن موسى-عليه السلام-أمرهم بالجمعة وقال لهم: "تفرَّغوا لله في كل سبعة أيام يومًا واحدًا"،-وكان المقصود يوم الجمعة لا تعملوا فيه شيئًا من أعمالكم-فأبوا أن يفعلوا ذلك، وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ فيه من الخلق، وهو يوم السبت، أي يريدون أن يفلسفوا امتناعهم عن الأمر، فيقولون: لا نريد يوم الجمعة، نريد اليوم الذي فرغ فيه من الخلق، يقصدون يوم السبت، فجعل الله تعالى السبت لهم وشدد عليهم فيه.

وقد رُوي عن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-أنه قال: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْجُمُعَةَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا فَاخْتَلَفُوا فِيهَا وَهَدَانَا اللَّهُ لَهَا فَالنَّاسُ لَنَا فِيهَا تَبَعٌ غَدًا لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى))[1]، وهذا أمر يجرُّنا لمناقشة أمر آخر وهو **اتِّفاق أهل المِلَل كلّهم** على أنَّ الله-عزَّ وجلَّ-خلق العالم في ستة أيام، وبدأ تعالى بالخلق يوم الأحد، وتمَّ يوم الجمعة، فكان يوم السبت كما رأت اليهود يوم فراغ من الخلق، فهم يقولون نحن نوافق ربَّنا في ترك الأعمال، فعيَّنوا يوم السبت لهذا المعنى، والنصارى قالوا: ابتدأ الله الخلق يوم الأحد، فنجعل هذا اليوم عيدًا لنا، **والله-عزَّ وجلَّ-كتب يوم الجمعة أي شرَّعه**، كتب بمعنى **شرّع، وجعله عيدًا لأنَّه يوم كمال الخلق وتمامه**، وهذا شرع نأتمر به وإن لم نعلم علَّته.

لكن المقصود هنا أن **يوم الجمعة للمسلمين** يوم العيد، يوم العبادة، يوم شأن الدين، و**لا** علاقة للمسائل الدنيوية بهذا الشأن، بمعنى: أنَّ اليوم الذي نتَّخذه يوم عبادة في الأسبوع هو يوم الجمعة الذي يكون مختلفًا عن بقيَّة الأيام من جهة العبادات المشروعة فيه، ففي هذا اليوم-يوم الجمعة العظيم-صلاة الجمعة، يجتمع فيها المسلمون عيدهم، يجتمع في صلاة الجمعة المسلمون، وفي هذا اليوم ساعة ترجى، فهنا الشأن، أما ترتيبات أهل الدنيا من جهة وظائفهم ومن جهة أعمالهم فهذا شأن لا علاقة له بهذا الأمر، أي أنَّ الدين هو أن يكون يوم الجمعة، يوم يُقيم فيه المسلمون شعائر دينيَّة خاصَّة مختلفة عن بقيَّة الأيَّام، ويكونون في فراغ من شأنهم من أجل إقامة هذه الطاعة.

المقصد: جُعل يوم السبت عليهم جزاءً لهم، وقد شُدِّد عليهم فيه، بمعنى أنَّهم مُنعوا تمامًا من أي عمل، وأُمِروا فقط بالعبادات.

" {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} فيبيّن لهم المُحقَّ من المُبطِل، والمُستحِقَّ للثَّواب ممَّن استحقَّ العذاب".

والذي يظهر في العلاقة بين هذا وما مضى أنَّ الكل من أصحاب المِلَل وأهل الكتب يدَّعون الصِّلة بإبراهيم-عليه السلام-، ولو نظرت إلى شرعهم الذي يسيرون عليه بعد أن حرَّفوا، فتجدهم مخالفين لشأن إبراهيم-عليه السلام-، وقد ذُكر هذا في ثنايا السورة، أنَّ كلّ أهل المِلَل يتوجَّهون إلى إبراهيم-عليه السلام-ويدَّعون أنَّهم يسيرون خَلفَه، وإذا نظرت إلى شرعهم وجدتهم مخالفين.

(1) رواه مسلم (856)

ختمت السورة بقوله تعالى: {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ} "أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم، المشتمِل على العِلم النافع والعَمَل الصالح {بِالْحِكْمَةِ} أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده".

سبيل ربنا مستقيم يشتمل أمرين:

1. تتعلم العلوم النافعة.
2. ثم تؤمر بالعمل الصالح.

بعد أن تعرف حقائق الأحوال يقال لك: الذي ينفعك أن تعمل هذه الأعمال.

والحكمة تتطلَّب من الإنسان العِلم والخبرة بأحوال الناس، تتعلم الدين وتكون خبيرًا بأحوال الناس، أما من كان بأحوال الناس خبيرًا وبالدِّين جاهلًا فإن هذا سيصِف للنَّاس طريقًا يوافق أهواءهم؛ لأنه خبير بحالهم ليس عالمًا بالشَّرع، فالحكمة لا تأتي إلا من علم بالشرع مع علم بأحوال الناس، فذاك الوقت يضع كل أمر في مكانه ويخاطب الناس على قدر فهمهم وقبولهم وانقيادهم.

وهذه الجملة تطول ولكنه طريق واضح: تعلم الشرع، وخالط الناس، وافهم أحوالهم، ثم ضع كل أمر في موضعه، وهي نعمة يرزقها الله من يشاء.

ومن أهم شروطها: التأنِّي، وعدم العجلة.

فإنَّ قومًا تعلَّموا لكنَّهم تعجَّلوا فما استطاعوا أن يفهموا كيف يعاملون الناس ويضعون الأمر في موطنه.

"ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم" فكيف يُترك التوحيد ويُنتقل إلى غيره؟!.

"وبالأقرب إلى الأذهان والفهم" فإذا أردت أن تشرح أمرا أو تُرشد إلى خير فابدأ بأقربه إلى الخلق.

"وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين". فلا تعرض على الناس المُشكل من الأقوال أو المُشكل من الأمور، وإنما خُص هذا المشكل من الشؤون والأمور، خصها لطلبة العلم، أما عامة الناس فاطرح عليهم ما يكون قبوله أتم، ويكون بالرفق واللين.

"فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب".

فإن انقاد بالحكمة وبالعلم وبهذا العرض فالحمد لله، وهذه مرحلة بعد المرحلة الماضية.

"إمَّا بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به".

فأنت تعرض عليه الحق وتبيِّنه بالحكمة، يأتون فيقولون لك: لكن العقل يقول والمنطق وما تعلمناه من بعض العلوم، فنقول: انظر، هذه أوامر الله وهذه الوعود عليها، وهذه النواهي وهذا الزجر والعقوبة التي تترتب عليها، وانظر هؤلاء القوم ماذا حصل لهم لما خالفوا أمر الله، وهؤلاء كيف أصيبوا بالأمراض، وهؤلاء كيف سقط السوق العالمي بسبب الربا وهكذا، فلما تأمره بالحكمة أولًا، وتبيِّن له ما يستجيب، تحوَّل معه إلى الموعظة.

"وإما بذكر ما أعدَّ الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعدَّ للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعو يرى أنَّ ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلًا ونقلًا".

فيُقال له أعرض ما عندك، أنا أبيِّن لك حال ما عندك، فكيف مثلًا أنت تظنّ أنَّ الله يريد منك هذا الدين الذي هو باطل، يعني من كان دينهم السَّب والشَّتم، من كان دينهم فيه تشكيك في الصحابة وفي حفظ الله للدين، وفيه تعدِّي على صحابة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، أنَّهم لا يتعدُّون فقط على من يرفضونهم، إنَّهم حتى يتعدُّون على من يوالونهم وهم لا يشعرون.

على كل حال لما يُصِرُّ هذا على دعوة الباطل، أو يرى ما هو عليه حق، فلابدَّ من التحوُّل معه، بالجدال وإظهار الباطل الذي هو عليه بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلًا ونقلًا.

ما معنى أن أجادله بالتي هي أحسن؟ أي بالطُّرق التي تقرِّب له أنَّ ما عليه هو باطل. هو يدور ويبحث عن أُكذُوبات من أجل أن يبطل عليك الحق، فأنت أظهر له الحقّ بأقرب طريق يمكن أن نصل به إلى الحق.

"ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلَّة التي كان يعتقدها، فإنَّه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها" كما نرى في الحوارات المفتوحة، أي ليس المقصود أن ننتصر، المقصود أن أبين الحق أين هو.

"ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها".

"وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ} عَلِم السَّبب الذي أدَّاه إلى الضَّلال، وعَلِم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها".

وكم في القديم والحديث تبيَّن لهم أنَّهم على ضلال لمصالح تعود عليهم.

" {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} عَلِم أنَّهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم".

فكل من أراد الحق ولم يرد الهوى يسلك الله به ويفتح له أبواب الخير ويشرح صدره للإيمان.

{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ}

"يقول تعالى-مبيحا للعدل ونادبا للفضل والإحسان {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ} من أساء إليكم بالقول والفعل {فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم".

وهو من الأمور المتوقّعة في مثل هذه المجادلات، في مثل هذه المجادلات يتوقّع أن يكون هناك من يخاصم، وهناك من يعتدي، فإذا حصل مثل هذا بعد الجدال هناك عدل، العدل أنك تعاقب من أساء إليك بالقول والفعل.

" {وَلَئِن صَبَرْتُمْ} عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم {لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة كما قال تعالى: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}[1] ، ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتّكال على النفس".

(1) [سورة الشورى:40]

من استيفاء الحقوق لأنَّ هذه الدنيا ليست موطنًا لاستيفاء الحقوق، وغالبًا ما يكون من الصعب تصوُّر الحدّ الذي أقف عنده، الأمر يحتاج إلى صبر، وحقًا كلَّما زاد الزمان بعدًا عن الجيل الأول، كان الأمر يحتاج إلى صبر، والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النَّفس.

إذًا يُباح العدل لكن يُندب إلى الفضل، والدعوة سواء كانت بالحكمة والموعظة الحسنة، أو الجدال كلها تحتاج إلى صبر، وهذا الصبر خير لك أيها الصابر، ولا تظنّ أنَّه خير للمصبور عليه، بل خير لك أيها الصابر، وهذا نقوله أولًا لأنفسنا، ونقوله لكل أحد:

صبرك سينفعك أنت، وعندما تصبر استعن بالله ولا تتكِّل على نفسك.

"فقال: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} هو الذي يعينك عليه ويثبتك".

فصبرك بنفسه منَّة مِن الله عليك.

" {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولًا لدعوتك، فإنَّ الحزن لا يجدي عليك شيئًا، {وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ} أي: شدَّة وحرج {مِمَّا يَمْكُرُونَ} فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين".

ومعنى ذلك، إذا لم يقبلوا اتركهم إلى غيرهم، لا تحزن وتقف عندهم، ولا تكن في ضيق-أي شدة وحرج- ممَّا يمكرون وغالبًا أنهم لابدَّ أن يمكروا، إذا أعادوك وأرادوا الانتصار لابدَّ أن يمكروا، اطمئنّ فإنَّ مكرهم عائد إليهم، وأهم أمر أن تكون أنت من المتقين المحسنين، يعني إذا مكروا هم أنت لا تبادلهم المكر، ولا تفكِّر فيهم، وتنشغل عن الله، وتنشغل عن غايتك، ويكون المهم عندك أن تنتصر عليهم، وتكتب في هؤلاء تذمّهم، وهؤلاء تشتمهم، وهؤلاء تقلِّل من مكانتهم؛ بل اتركهم وتحوَّل إلى غيرهم من المستجيبين، والله ينفعك بالمستجيبين، وكن من المتقين المحسنين والله مع المتقين المحسنين.

كم هي نعمة أن يكون الله معك بعونه وتوفيقه وتسديده، معك يعينك ويوفقك ويسددك، فهذا طريق لا تستطيعه أنت وحدك، لا يمكنك أن تصل إلا بعونه وتسديده وتوفيقه.

"والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه".

وهذا الجزاء الأول من الإحسان والمحسنين أيضًا، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه، إذًا هذا حال من منَّ الله عليه، وأكرمه بالدعوة إلى الله، **سِر** على طريق الأنبياء، **اجعل** إبراهيم-عليه السلام-والنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-أمام عينيك، **واستعمل** في عرض الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، **وجادل** من يستحق المجادلة، وربك أعلم بمن ضل عن سبيله وربك أعلم بالمهتدين.

إذا وقع عليك اعتداء لا بأس أن تعتدي، لكن نُدبت إلى الفضل والإحسان والله يحب المحسنين، واصبر وأنت المنتفع من صبرك، ولا تكن في ضيق، لا تحزن ولا تضيق منهم بما يمكرون به فإنَّ مكرهم سيعود إليهم، لكن لا تشتغل بهم واعلم {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}.

"نسأل الله أن يجعلنا من المتَّقين المحسنين"

وألقاكم وأنتم في خير حال من الإيمان والتقوى.

اللهم أعنَّا وأعِذنا وسدِّدنا واحفظنا واحفظ إيماننا، اللهم آمين.

اللقاء الخامس عشر

تفسير الآيات 61 – 69 من سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ها هو قد انتصف بنا هذا الشهر الكريم، وحملنا فيه ما حملنا من أسباب زيادة الإيمان، ودخلنا فيه ما دخلنا من الطاعات ابتغاء وجه الله ورجاء لقائه وهو عنا راضٍ، وفي كل ما فعلنا سواء من جهة الأسباب أو من جهة الأعمال فإنا في كل ذلك نرجو من الله أن يقبلنا، وهو–سبحانه وتعالى–إنما يتقبل من المتقين، وهذا الأمر لابد أن يكون شاغلًا لعباد الله المؤمنين، **فإن القبول للعمل سببٌ لتعظيمه مهما قلّ، ولبركته على العبد مهما كان هذا العمل**، والأعمال ليس كما يظنّ أصحابها، أنها بعددها، وإنما يتقبل الله من المتقين المؤمنين الذين عملوا من الصالحات ما أرادوا به وجه الله، فمن أقبل بجدّ واجتهاد على العبادة وتقرب بأنواع الطاعات وشتى القُربات، لا يعني هذا أن يعتقد ويجزم لنفسه بالقبول.

- يقول علي–رضي الله عنه–: "كونوا لقبول العمل أشدّ اهتمامًا من العمل، ألم تسمعوا قول الله تعالى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}[1] ".
- وقد ورد كثير في كلام السلف يدل على ذلك، فمن ذلك ما جاء عن أبي الدرداء أنه قال: "لئن أستيقن أن الله تقبل مني صلاة واحدة أحبّ إلي من الدنيا وما فيها".
- ومما قاله عليّ أيضًا–رضي الله عنه–: "لا يقِلّ عمل مع تقوى، وكيف يقِلّ ما يُتقبَّل؟!".
- ومما يُحْكَى عن ابن عمر–رضي الله عنه–: أنه كان جالسًا مع ابنه سالم رضي الله عنهم جميعًا، فدخل سائل عليهم فأمر ابن عمر ابنه سالم أن يعطي هذا السائل دينارًا فأعطاه، فحينما انصرف السائل قال ابنه: تقبّل الله منك يا أبتاه، فقال–ابن عمر–: "لو علمتُ أن الله تقبّل مني سجدة واحدة أو صدقة درهم لم يكن غائبٌ أحبّ إليّ من الموت! تدري ممن يتقبّل الله؟ {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}".
- وقد ذُكر في سيرة عامر بن عبد الله العنبري، أحد كبار التابعين، أنه لما حضرته الوفاة بكى، قالوا له: ما يبكيك؟ فقد كنت وكنت،–أي من الأعمال الصالحة–قال: "يبكيني أني أسمع الله يقول: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}".

(1) [سورة المائدة: 27]

المعنى أن هذا هاجس علينا أن نشتغل به، **قبول العمل أو رده**، علينا أن نعمل الأعمال نحتسبها على الله، انفعني بها في ظلمة القبر، انفعني بها يوم ألقاك، ومن أراد أن ينفعه الله بهذه الأعمال في تلك المواطن العظيمة، فعليه أن يجتهد في طلب القبول، فمن اجتهد في طلب القبول، أحسن إلى نفسه، ومن غره الشيطان فأشغله بالعمل عن طلب قبوله، فقد أفلح الشيطان في إشغاله وإبعاده عن المراد!.

وربما يخطر للبعض أن في هذا الزمن–زمن رمضان–الشياطين مصفّدة، ونقول:

كما ورد في الحديث أن مردتهم هم المصفدين[1]، هذا أمر.

أمر آخر أن الناس ابتُلوا بالشياطين وبوسوستهم في كل زمان، واعتادوا على هذا التفكير بحيث أنه حتى لو حُبست مردة الشياطين يبقى الإنسان على التفكير الذي لقنه الشيطان إياه.

واليوم نتدارس **في سورة الإسراء ما يجب أن نحمله في قلوبنا تجاه عدونا** الذي يشغلنا عن المهمات، ويصرف قلوبنا عن الأمور العظام، ويضيق علينا ما شرح الله به الصدور.

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65) رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (67) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)}[2]

(1) رواه النسائي في سننه، وقال الألباني: صحيح.

(2) [سورة الإسراء: ٦١ – ٦٩]

قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} وهذه بداية الخلق {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ} اعترض بأي شيء؟ {قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}.

نفهم عقيدتنا فيه من خلال الآيات، نقرأ في التفسير ونعلق على ما نستطيع، نسأل الله أن يسددنا ويشرح صدورنا وييسر لنا العلم.

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

"ينبّه تبارك وتعالى عباده على شدّة عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم".

إذًا هناك عدوّ شديد العداوة، شدّة عداوة الشيطان، وهذه العداوة الشديدة أورثت الحرص على إضلال بني آدم. وبداية هذا الأمر قال:

"وأنه لما خلق الله آدم استكبر عن السجود له و {قَالَ} متكبرا: {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} أي: من طين وبزعمه أنه خير منه لأنه خلق من نار. وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه".

ويقصد بذلك أن دعوى الشيطان أنه خير منه لأنه خُلق من نار دعوى باطلة، فإن النار فيها من الطيش ما فيها، فلا تدلّ النار على الخيرية، لكن عندما تنظر في الآيات، الله–عزَّ وجلَّ–يأمره بالسجود مع من أمَر، فيكون جوابه الرفض زاعمًا أنه خير منه!.

"فلما تبيّن لإبليس تفضيل الله لآدم {قَالَ} مخاطبا لله:"

وانظر لهذا الخطاب الذي فيه سوء أدب!

"{أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ} أي: لأستأصلنهم بالإضلال ولأغوينهم".

أي هذا الذي كرمت علي وفضلت عليّ بأن أمرتني بالسجود له وقد خلقتني من نار سيكون حالي معه أن أحتنك ذريته.

"أي لأستأصلهم بالإضلال ولأغوينهم".

(**أحتنكهم**) يحتنكهم بمعنى يستولي عليهم بالإغواء، والعرب تقول: احتنك الجراد الزرع، أي: استأصل الزرع بإحناكه، أي أفسده.

المعنى أن الاحتناك هو الاستيلاء على الشيء وأخذه كله.

فهو يقول: {لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ} أي: يريد أن يستولي عليهم، سيستولي عليهم بأي شيء؟ بالإغواء!

"{إلا قَلِيلا} عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه".

إذًا ذكرى هذه الأحداث تُفيدنا جدًا، تدلّ على إضمار المكر للذرية، {أَرَأَيْتَكَ} الله-عزَّ وجلَّ-يأمره بالسجود فيقول: {أَأَسْجُدُ} مستبعد أن يفعل هذا الفعل {لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}، {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ} سأفعل به، وهذا جمع بين إساءة الأدب مع الله، وبين إظهار العداوة لمن يحبه الله، وهذا من إبليس إعرابًا عما في ضميره.

وأظهر **شرط هذا الفعل** أن يؤخره الله ليوم القيامة من أجل أي شيء؟ **ليعم بإغوائه جميع أجيال ذرية آدم**، فلا يكون هناك جيل آمن من إغوائه.

وهذا لابد أن يكون **موافقًا لحكمة الله**، فإن الله حكيم، لما سلط علينا هذا الخبيث ابتلانا به، وهو توعد بأن يحتنك هذه الذرية، وكأنه سيستولي عليها إغواءً.

"فقال الله له: {اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ} واختارك على ربه ووليه الحق، {فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا} أي: مدخرًا لكم موفرًا جزاء أعمالكم".

{اذْهَبْ} بمعنى: **امض لشأنك الذي اخترته**، وخلى بينه وبين مراده، وهذه التخلية بين الشيطان وبين مراده الذي هو شرّ نوع من أنواع الخُذلان.

وليُعلم أن خُذلان الله-عزَّ وجلَّ-للعبد له صور، من أعظمها: أن يُمكن العبد من المعصية، ثم إن إبليس ابْتُلِي بأن أعطي الحياة فلا يموت إلى النفخة الأولى، **وهذا ليس كرامة له**، وإنما خذلان من الله له، ومَن تبعه وأطاعه فله مع إبليس جهنم جزاءً موفورًا مدخرًا لكم موفرًا جزاء على أعمالكم.

"ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم".

هذه الأمور الآن الخمسة التي سيأمره بها هذا من **باب التهديد والاستدراج لا من باب التكليف**؛ لأنها كلها معاصي والله لا يأمر بها.

ماذا سيفعل؟

"{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية".

والمعنى أن الله-عزَّ وجلَّ-يمكّنه من هذا،{وَاسْتَفْزِزْ} أي **استعجل، استذل، استخف، أزعج من استطعت أن تستفزه منهم**، أي من بني آدم، بصوتك داعيًا لهم إلى معصية الله، وهذا يدخل فيه كل داع إلى المعصية، فاللهو واللعب والمزامير والغناء ودعاة الباطل كل هؤلاء داخلين في صوت الشيطان، وأعظم صوت له الوسوسة، فهي من أعظم أفعالِهِ التي تُفْسِد على الخلق حياتهم، فإبليس شُبِّه بأنه قائد جيش، ماذا يفعل؟ يستفز من استطاع من بني آدم بصوته.

{وَأَجْلِبْ} **مشتقة من الجَلَبَةَ**، وهو الصياح، فقائد الجيش إذا أراد جمع الجيش نادى فيهم للنفير أو للغارة أو الهجوم، {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ} والخيل معلوم ولكن ليسوا هم المقصودون هنا، إنما المقصود به من يركبهم من أجل أن يصل إلى مقاصده، وهم الجُند الذين سيكونون للشيطان، إذًا أجلب عليهم ونادهم وافعل ما تستطيع من أجل ذلك.

{وَرَجِلِكَ} بمعنى: أنك تفعل هذا الاستفزاز والصياح بكل ما تستطيعه من الأدوات، فالرجال تستخدمهم من الجن والإنس كل من ركب أو مشى، فعلى ذلك سيكون له أعوان خيل ورجال من الجن والإنس وهم كل من مشى في معصية ودعا إليها.

يقول: "{وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله فهو من خيل الشيطان ورجله.

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين الداعي لهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله".

أي أن هذا العدو **ابتلينا به وله أعوان**، وأعوانه يكونون من بني آدم أو من الجن نفسهم.

"{وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأولادِ} وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم".

كل معصية نوع من أنواع مشاركة إبليس لنا في أموالنا وأولادنا، المعاصي استجابة لدعوته، فهو بمثابة السماح له بالمشاركة.

ضرب الشيخ أمثلة على ذلك فقال:

"من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة".

المعصية هنا المنع، يمنع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، فالشيطان يشاركنا بالأموال بأن يمنعنا من أن نقوم بالزكاة أو يكون علينا كفارات فيمنعنا منها ويُكسلنا عنها، وهناك من لهم حق معلوم في الأموال من حيث النفقة فيغفلنا عنها ويصرفنا ويثقلها علينا.

وأما من جهة الأولاد **يقول**:

"وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر".

أي نكسل عن تربية أولادنا، الكسل عن التربية نوع من أنواع مشاركة الشيطان لنا فيهم.

نكسل عن تربيتهم على الخير وعن ردهم عن الشر، نكسل عن هذا، فتكون النتيجة أن الشيطان يشاركنا في أبنائنا، والحق أننا نستعين بالله على أداء الواجبات وتربية الأبناء.

"وأخذ الأموال بغير حقها أو وضعها بغير حقها أو استعمال المكاسب الردية".

كل هذا من الصور، إما أن نأخذ أموال بغير حق أو ننفقها في غير مكانها هذا من مشاركة الشيطان لنا، أو استعمال المكاسب الرديئة، بحيث الإنسان يطمع في المال فيغش المسلمين أو يُخادعهم.

وهذا الذي نراه على جميع الأصعدة والمستويات من استعمال المكاسب الرديئة إنما هو بمشاركة الشيطان، فإذا نظرتِ للتجارة نظرتِ إلى خداع المسلمين وغشهم بهذه الإعلانات، وإذا نظرتِ حتى مدارس التحفيظ والقائمين على البرامج الموجهة للصغار أو الكبار، نجد أن هناك مكاسب رديئة تُقصد من البرامج، يعني يُقصد من البرنامج المال الذي وراءه، ولا يُؤخذ المال من أجل إقامة البرنامج، إنما يقام البرنامج من أجل أخذ مال الناس، والفرق طبعا كبير بين الحالين، أنا أريد نفع الناس ولا أستطيع هذا إلا بكوادر وأماكن أؤجرها وبأموال أنفقها، علي تفاصيل تنفع الصغير أو الكبير، وكهرباء أدفعها إلى آخره

إلى آخر التفاصيل، إذًا لابد أن آخذ للبرنامج مال، أخذ مال من أجل أن يقام البرنامج، غير أن يقام البرنامج من أجل أن يأخذوا أموال الناس ومن ثم يعدهم وعودًا كثيرة ولا يحققها، وتجد الناس يجتمعون يتدربون كيف يأخذون أموال الناس! وهذا كثير موجود سواء كان في التجارة أو في التعليم، أو في غير ذلك من المرافق، وإذا أردت شاهدًا على ذلك فانظر شركات الاتصال فإن فيها من بذل الجهد وإنفاق أموال الناس ما يفهمك أن الشيطان معينًا لهم، فهذه من المكاسب الرديئة.

"بل ذكر كثير من المفسرين أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع".

فلو تركت التسمية شارك الشيطان مباشرة. **"وأنه إذا لم يسم الله في ذلك شارك فيه الشيطان كما ورد فيه الحديث".**

إذًا سيستفز وسيجلب وسيشارك وسيعد.

"{وَعِدْهُمْ} الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها ولهذا قال: {وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا} أي: باطلا مضمحلا كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة ويعدهم عليها الأجر".

وهذا باب عظيم من **أعظم أبواب الشيطان**، ألا وهو **البدعة**، فإنك ترى عجبًا، باطل، معصية تُمارس على أنها دين، فترى الراقصين في جنبات المساجد، وترى الناس في الحج في أرض مِنى التي هي من الحرم، الحرم المُعظم المُقدس المُطهر الذي أُمِرنا بتطهيره تجتمع في بعض المخيمات، يجتمع الرجال مع النساء يرقصون يقولون: قُربة وعبادة! فما نقول إلا: "والشيطان قد وعدكم الغرور وجعل المعصية في عيونكم طاعة"!

ومثل هذا ما تسمع من إسالة دماء النفس وضربها وجلدها، يقولون: قربة إلى الله! **والتعدي على الدماء من المسائل العظيمة**، فكيف حين يتعدى الإنسان على نفسه؟! إن قتل النفس محرم وإيذاؤها محرم، فسبحان الله، كيف تتحول المعاصي الكبيرة عند هؤلاء عبادة وقربة إلى الله، والفطر تَمُجّهَا ولا تقبلها، لكن الشيطان غرهم غرورا، وعدهم وعودا.

ومثلها في العقائد الفاسدة، فإنك ترى خيل الشيطان ورَجْلِه واضحة في ما تدعو إليه الماسونية العالمية من عقائد عجيبة وتجعل كل أهل ديانة ينشقون زيادة على انشقاقهم، فتسمع هنا وتسمع هنا فِرَقْ لا تخطُر على البال، واعتقادات يرفضها الصغير قبل الكبير، لكن هذا كله من تزيين الشيطان، فيزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة ويعدهم عليها الأجر، أي يقومون بالمعصية على أنها قربة ويأخذون الأجر عليها، فتجد مزامير الشيطان في المساجد على أن هذا ذكر، وتجدهم يرقصون على أن هذا قربة طاعة عندهم هذا مثل الصلاة، وتجدهم والعياذ بالله يقعون في الزنا على أن مثل هذا طاعةً وعبادة، أمر يفوق تصور الشخص ذَا فطرة سوية، أي العبد ذا الفطرة السوية لا يتصور هذا الأمر، ولكنه موجود، والحقيقة أنه لا داعي للقراءة عن ذلك و لا البحث فيه.

نسأل الله مقلب القلوب أن يثبت قلبنا على دينه ومصرف القلوب أن يصرف قلوبنا على طاعته.

المهم أنه ماذا يفعل بهم يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة ويعدهم عليها الأجر لأنهم يظنون أنهم على حق، وأعظم ما في ذلك **الشرك**، فإنك ترى في أنحاء العالم الإسلامي أنواع من التوجهات لغير الله والتمسح بالقبور، ويرون أن هذه طاعة ويبغضون بغضًا عظيمًا من يمنعهم من ذلك أو يُحرج عليهم هذا الأمر.

"{وَعِدْهُمْ} الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها ولهذا قال: {وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا} أي: باطلا مضمحلا كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة ويعدهم عليها الأجر لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا}.

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد وذكر ما يعتصم به من فتنته وهو عبودية الله والقيام بالإيمان والتوكل".

إذًا نحن عندنا أمور ثلاثة:

1. أن نكون عباد.
2. وأن نقوم بالإيمان.
3. والتوكل على الله.

{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65)}

"فقال: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} أي: تسلط وإغواء بل الله يدفع عنهم–بقيامهم بعبوديته–كل شر ويحفظهم من الشيطان الرجيم ويقوم بكفايتهم.{وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا} لمن توكل عليه وأدى ما أُمر به".

نحن دورنا أن نتمسك بحبل الله، نطيع الله نستجيب لأمر الله لا نخون الله ولا رسوله نتقي الله، هذه كلها عبوديات، ونؤمن بالله ونؤمن بأن الله ابتلانا بهذا الشيطان، ولا نبقى في حال حِيرة ماذا يحصل في نفوسنا وقتما نشعر ببغض الحق وانشراح صدورنا للباطل، ما تختار في ذلك إنه من فعل الشيطان، يوسوس لك يجلب عليك بخيله ورجله وأنت تستجيب، فإذا أتاك مثل هذا، تمسك بحبل الله وأطع الله وتوكل على الله واطلب كفاية الله، وآمن أن الله من حكمته أن ابتلانا به.

فهذه العقيدة العظيمة تُصْرِف عن الإنسان كثير من الوساوس، فإن الشيطان وسيلته الوسوسة، وغرضه الفتنة، فيزين المفاسد ويُفظّع المصالح، يجعل المصالح الشرعية شيء بعيد وصعب، والله وصفه هنا بحال من يغزو قومًا بجيش عظيم من فرسان ورَاجِلَةَ ماشية على الأرض، فهل استعددتُم لهذه الحرب؟ أجلب عليهم، أُغزُهم، وصِح كمن يصيح في جيشه! وهذا بلاء علينا، نسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يعيننا على ما ابتلانا.

فنحن نؤمن أن الله حكيم، ونؤمن أن هذا الاختبار العظيم الذي نحن فيه يحتاج إلى قوة إيمان، ونؤمن أننا لن نفلح ولن نصلح إلا بتمام التوكل عليه، وهنا التوكل يتمثل بطلب العون منه، نعتمد عليه أن يعيننا على طاعته وعبادته، فإذا كان هذا من العبد يكون الإنسان قد أحسن لنفسه.

تأتي الآيات التي بعدها تذكر صورة من الصور التي **يمارس فيها الشيطان أفعاله علينا**، فالله–عزَّ وجلَّ–يذكرنا بنعمائه.

"يذكر تعالى نعمته على العباد بما سخر لهم من الفلك والسفن والمراكب وألهمهم كيفية صنعتها، وسخر لها البحر الملتطم يحملها على ظهره".

إذًا الله–عزَّ وجلَّ–يذكرنا بنعمته، النعمة هنا تتمثل بما سخره لنا من الفلك والسفن والمراكب، ألهمنا علمنا كيفية صناعتها، وسخر لهذه السفن البحر، البحر ماذا يفعل؟ يحملها، يحمل المراكب على ظهره، لماذا؟

"لينتفع العباد بها للركوب والحمل للأمتعة والتجارة". نركب عليها ونحمل عليها ونتاجر.

"وهذا من رحمته بعباده فإنه لم يزل بهم رحيما رؤوفا يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم".

هذا من رحمته بعبادة {الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم بشيء يعلمهم إياه ويعطيهم إياه.

قال:

"ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسهم الضر في البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر".

إذًا عندما يركبوا البحر الذي هو نعمة الله يكون في هذه النعمة أيضًا رحمة من الله، أين هي الرحمة؟ بأن يذكرهم بربهم ومعبودهم، فما يكون اغتنامهم لهذه النعمة فقط للدنيا، إنما ينتفعوا منها في عودهم إلى ربهم، وفي إنابتهم وتوحيدهم، ليتبين لهم أن ليس لهم رب إلا الله.

ماذا يحصل؟ كانوا يدعون في الرخاء أحياء أو أموات، عندما أتى هذا الوقت وحصل لهم ومسهم الضر في البحر.

"صرخوا بدعوة فاطر الأرض والسموات الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات، أخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال. فلما كشف الله عنهم الضر ونجاهم إلى البر".

هنا تأتي وسيلة الشيطان ويأتي فعله.

"ونسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع".

إذًا احتال عليهم الشيطان لما وصلوا إلى البر، نجاهم الله إلى البر نسوا ما كانوا يدعون.

"وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم، وهذا من جهل الإنسان وكفره فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى الله فمن عليه بالعقل السليم واهتدى إلى الصراط المستقيم، فإنه يعلم أن الذي يكشف الشدائد وينجي من الأهوال هو الذي يستحق أن يفرد وتخلص له سائر الأعمال في الشدة والرخاء واليسر والعسر".

أنت عشت موقف كيف يأتي الشيطان موقف فتصدقه!، وهذه الحال يعني حال الإنسان الذي منّ الله عليه بالعقل، كانت متمثلة في **عكرمة رضي الله عنه**.

عكرمة–رضي الله عنه–لما ذهب فارًا من رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–حين فتح مكة، هرب فركب في البحر ليدخل على الحبشة، فجاءتهم ريحٌ عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده، فقال عكرمة–رضي الله عنه–في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره، فقال: اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يده فلأجدنه رؤوفًا رحيمًا، فخرجوا من البحر فرجع إلى النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–فأسلم وحَسُنَ إسلامه–رضي الله عنه–وأرضاه.

إذًا عكرمة–رضي الله عنه–يمثل هذا الرجل الذي كان ممن مَنَّ الله عليه بالعقل السليم واهتدى إلى الصراط المستقيم.

"أما من خُذل ووُكل إلى عقله الضعيف فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة وإنجاءه في تلك الحال.

"فلما حصلت له النجاة وزالت عنه المشقة ظن بجهله أنه قد أعجز الله ولم يخطر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية فضلا عن أمور الآخرة".

وهذا كله بسبب تسليم الإنسان عقله للشيطان.

الآن تنجون من البحر يردكم، ماذا تظنون في الله؟ كيف تعتقدون هذا في الله؟

"ولهذا ذكرهم الله بقوله: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} أي: فهو على كل شيء قدير إن شاء أنزل عليكم عذابا من أسفل منكم بالخسف أو من فوقكم بالحاصب".

أي الرياح التي تحمل الحجارة الصغيرة التي تكون سببًا في هلاككم.

أي أنتم تعاملون من؟! فهذا مما يُتعجب منه من بني آدم، أنهم لا يعرفون مَن هو الله، ولا يقدرون قدره -سبحانه وتعالى-.

"وهو العذاب الذي يحصبهم فيصبحوا هالكين".

فهذا الحاصب ماذا يفعل بهم؟ **"يحصبهم فيصبحوا هالكين، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر".**

هذا ظن عجيب ليس له وجه، أن يظنوا أنهم إذا نجوا من البحر انتهت قدرة الله عليهم! وهذا يُلقنهم هو الشيطان، فهذه الريح الحاصب التي ترمي بالحصباء الصغيرة يمكن أن تحصبهم فتميتهم.

"وإن ظننتم ذلك فأنتم آمنون من {أَنْ يُعِيدَكُمْ} في البحر {تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ} أي: ريحا شديدة جدا تقصف ما أتت عليه".

يعني أن ظننتم أنكم تأمنون في جانب البحر ما يخسف بكم البر بعد أن عدتم إلى البر، ما يخسف بكم البر، أو من السماء يرسل عليكم حاصبًا أي ريح شديدة حاصبًا ترمي بالحصباء الصغار تذهب بكم، أو إذا أمنتم من هذا يعيدكم مرة أخرى إلى البحر، تغفلون فتنسوا فتعودوا إلى البحر ففي عودتكم هذه تأتيكم ريح شديدة تقصفكم.

"{فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} أي: تبعة ومطالبة فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة".

هذه الحال العجيبة الذي يمكن أن يدخل بها الإنسان من نسيان قدرة الله، وتصور أنه عندما ينجو من أمر أي يكون في ضيق ويدعو الله ويفكر فقط في خروجه من الضيق فإذا خرج يظن أنه أعجز الله، **هذا من المكر في التعامل مع الله**، ماذا يظن الإنسان، أيظن أنه لو عاد إلى بيته أو عاد إلى البر أو عاد المكان الذي يأمن به أو خرج من بيته أو خرج من ضيقة أو خرج من السجن أو خرج من الضائقة المالية أنه في غنى عن ربه؟!

ما أفظع ما يلقيه الشيطان في قلوب الخلق عن ربهم، إننا في غاية الفقر تام إليه، ما يأتي زمن في حياتنا نستطيع أن نقول إننا مستغنين عنه، إن الله معنا في الشدائد ومعنا في الرخاء، هو الذي يحفظنا وهو الذي ويتولانا ويرشدنا، لكن إذا استولى الشيطان على الإنسان، إذا أحتنك الشيطان هذا الإنسان فكأنه وضع، احتنك هذه كلمة عظيمة لو فهمتها جيدًا ستتصور أن حنك الإنسان كأن الشيطان وضع عليه لجاما فاحتنكه! وهذا من معانيها في اللغة، فيضعون على حنك الفرس اللجام فيتحكمون فيه غاية التحكم.

فالشيطان الآن كأنه يحتنك الإنسان، يضع على حنكه اللجام ويحركه، فمن أعظم ما يحرك الشيطان به الإنسان **سوء ظنه بربه**.

ومن سوء الظن:

- تصور الاستغناء عن الله.
- المكر في التعامل مع الله.

يبقى مستغنيًا قلبه معلق بغير الله، فيوقظه الله بموقف من المواقف، فيدخل في هذا الموقف يشعر بالشدة يطول دعاؤه ونداؤه واستغاثته، فإذا كان عاقلًا رشيدًا ينفض عنه حال الشيطان كما فعل عكرمة رضي الله عنه، ويدخل إلى طريق الرحمن، ويعرف فقره الدائم في كل حال، وإذا استولى عليه الشيطان مكر، ما أن ينتهي الحال الذي هو فيه إلا ويظنّ أنه مستغن عن ربه، إذا خرجت من الأزمة المالية تتصور أنك ما تدخل في غيرها؟! إذا ردّ عليك محبوبك ما تظن أنه يذهب إلى غيره أو به؟! كلها ظنون فاسدة يلقيها الشيطان.

نعوذ بالله أن يحتنكنا الشيطان، نلجأُ إلى ربنا الرحمن، نسألُه أن يعيذنا من شر أنفسنا ومن شر الشيطان الذي إذا احتنك أحدًا من العباد أفسد عليه قلبه وسلوكه.

نسأل الله أن يحفظ علينا عقائدنا ويسلمها ويزيدها صحتًا ويقينا، ويجعلنا من تعلق به في رخائه وشددته، ولا أشدّ من لحظة القبض! فاللهم كُن لنا في تلك اللحظة وأحسن خواتيمنا، واجعل ملائكتك الكرام يبشروننا ألا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، واحفظنا من أن يتخبطنا الشيطان في تلك اللحظة العظيمة، اللهم آمين.

الفهرس

اللقاء الثامن 3

تفسير الآيات 85 – 93 من سورة الأعراف 3

اللقاء التاسع 20

تفسير الآيات 20-29 من سورة الأنفال 20

اللقاء العاشر 34

تفسير الآيات 67 – 72 من سورة التوبة 34

اللقاء الحادي عشر 49

تفسير الآيات 83-93 من سورة يونس 49

اللقاء الثاني عشر 67

تفسير الآيات 36- 49 من سورة هود 67

اللقاء الثالث عشر 81

تفسير الآيات 42-52 من سورة إبراهيم 81

اللقاء الرابع عشر 96

تفسير الآيات 121-128 من سورة النحل 96

اللقاء الخامس عشر 111

تفسير الآيات 61 – 69 من سورة الإسراء 111